السنة السابعة (جمادى الثانى سنة ١٣٥٩ هـ — يوليو سنة ١٩٤٠ م) العدد الأول

صحيفة دار العلوم

ص (١) ع ٤ ١٩٣٤

تصدرها جماعة دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ ٱلْعُلُومِ"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

صحيفة دار العلوم

دخلت الصحيفة فى عامها السابع ، وهى تنمو وتترعرع ، كلما مرت بها السنون ، وقد تغلبت على المشكلات التى نشأت عن الحرب ، من قلة الورق ، وارتفاع ثمنه ، وكثرة النفقات التى يتطلبها الطبع والإصدار والنشر .

إن الصحف والمجلات قد اختزل حجمها ، إلى نحو النصف مما كان عليه قبل الحرب ، ولكن صحيفة دار العلوم مازالت محتفظة بمستواها ، من جهة الكم والكيف ، لأنها لا ترمى إلا إلى غرض واحد ، هو نشر الثقافة فى أسلوب عربى صميم ، بين طلاب الأدب العربى ، فى جميع الأقطار الناطق أهلها بالضاد

وهى تنتظر من قرائها أن يعينوها على تحقيق غرضها ، بمالهم وجاههم وثروتهم الفكرية ، والله يجزيهم عن اللغة وأهلها خير الجزاء .

جماعة دار العلوم

كان العام الماضى فى تاريخ الجماعة من أحفل الأعوام بالعمل الصالح، الذى يعود نفعه على أبناء دارالعلوم عامة، فقد قام مجلس الإدارة بدراسة عدة مسائل ترتبط بالتعليم، أبدى فيها رأيا موفقا، وكتب مذكرات عدة تقدم بها إلى الجهات المختصة، وطالب فيها بحق أبناء دار العلوم، فى الوظائف الكبيرة والدرجات المختلفة، ومرت بالمجلس أزمات، انقطع أعضاؤه لدراستها، حتى يغلبوا عليها، فى كثير من الهدوء والروية وبعد النظر، مؤثرين فى ذلك مصلحة بلادهم، وخدمة قومهم، على تحقيق أغراضهم الخاصة.

وحاولت أيد أن تعبث باتحاد الجماعة، وأن تطمس ماقام به المجلس فى خلال العام من جسيم الأعمال، وعلى الرغم مما قامت به هذه الفئة مما يقصد منه انصراف الغالبية العظمى عن مناصرة المجلس، واقراره على الخطة الحكيمة التى اتخذها، أدرك أعضاء الجماعة، حين اجتمعوا اجتماعهم السنوى، أن مجلس الإدارة لم يقصر فى اداء واجب، ولم يدع وسيلة من الوسائل المشروعة إلا اتخذها لتحقيق غاياته، ولذلك جددوا انتخاب سبعة من ثمانية الأعضاء الذين انتهت مدة انتخابهم، وفى هذا دليل على حكمة أبناء دار العلوم، وحسن تقديرهم، ووزنهم المسائل بميزان دقيق.

ومما يجب أن يغتبط به الأستاذ نجيب حتاته، رئيس الجماعة، ويغتبط به زملاؤه المخلصون، أنه انتخب رئيسا للجماعة بالإجماع، دون أن يحضر الاجتماع، وهذا دليل على ماله من مكانة عند اساتذة اللغة العربية فى المدارس المختلفة، ولا يسعنا إلا أن نبعث إليه بالتهنئة خالصة، ونرجوه أن يستمر على خدمة الجماعة، وإخلاصه لأعضائها، والله يوفقه وأعضاء المجلس إلى تحقيق مانصبو إليه من غايات.

الامتحانات العامة

شغل المفكرون وأصحاب الرأى فينا بالحرب الحاضرة ، التى اشتعل لظاها فى كثير من أقطار المعمورة ، وبالبحث عن مكان أمين يلجأ إليه أولادهم وأهلوهم ، إذا جد الجد ، وبالهجرة إلى بلاد الريف ، وبالحصول على أسباب العيش — شغلوا بكل هذا وغيره عن الامتحانات العامة ونتائجها السيئة .

وتناولت الصحف بعض هذه النتائج ، وأظهرت عدم رضاها عنها ، ولكنها سرعان ما انصرفت عنها إلى شئون الحرب والسياسة .

ولو أن الحرب لم تشغل بال الناس ، ولم يصرفهم التفكير فى نتائجها والاستعداد لها ، لجرت الأقلام ، وامتلأت الصفحات ، وارتفعت الشكوى من كل ناحية ، ولتوالت الوفود من أولياء أمورهم على وزارة المعارف .

والواقع أن هذه مسئلة جديرة بالبحث والنظر ، فإن هبوط النسبة المئوية للنجاح فى امتحان السنة التوجيهية لا نعرف له سببا معقولا ، يطمئن إليه الناس ، وقد كان الرسوب فى الأعوام الماضية يعزى إلى انصراف التلاميذ عن دروسهم وإضرابهم عن تلقى العلم ، واشتغالهم بتأييد مذهب سياسى ، أو نزعة حزبية ، ولكن العام الماضى مر فى هدوء ، وكنا نلمح فى التلاميذ حين نزور المدارس كثيرا من آثار الجد ، وأمارات الاهتمام ، والرغبة فى التحصيل .

وقد نجح هؤلاء الطلاب جميعا فى امتحان الثقافة العامة فى العام الماضى ، ومعنى ذلك أنهم قطعوا المراحل الدراسية السابقة فى توفيق ونجاح ، فماذا حدث فى خلال دراستهم فى السنة التوجيهية ، حتى جعل الجمهرة العظمى منهم تخفق فى الامتحان ؟

إن المدرسين الذين يعهد إليهم بالتدريس فى السنة التوجيهية يختارون من بين المدرسين فى المدارس الثانوية ، ويراعى فى اختيارهم الكفاية العلمية ، والاطلاع الواسع ، والقدرة على إثارة الشوق فى الطلاب ، وتحبيب العلم اليهم ، والنشاط الموفور وحسن العرض لما يسوقون من حقائق العلم ، والإخلاص الذى يدفعهم الى العمل الموصول ، وأنهم من أصحاب النفوذ الأدبى فى طلابهم، وجملة القول أن المدرسين فى السنة التوجيهية هم صفوة المدرسين فى المدارس الثانوية ولا أستسيغ أن ينسب سوء النتائج بعد هذا كله إلى المدرسين اللهم إلا إذا قام على ذلك دليل لا ينقض

أما تلاميذ الثقافة العامة فلسنا نعرف على التحقيق سببا فى إخفاق الكثرة الغالبة منهم فى هذا الامتحان ، ومن المعروف أن وزارة المعارف هى التى تتولى امتحان النقل فى المدارس الحرة ، فمدرسوها هم الذين يضعون الأسئلة ، وهم الذين يخصصون لكل سؤال عددا من الدرجات ، وهم الذين يوزعون هذه الدرجات على أجزاء السؤال ، ونظار المدارس الثانوية الأميرية هم الذين ينظمون اللجان ، ويشرفون على تقدير الدرجات ورصدها ، ويعلنون النتائج ، لا فرق فى ذلك بين تلاميذ المدارس الأميرية وسواهم ، فإذا كان التلاميذ قد انتقلوا إلى السنة الرابعة باستحقاق فليس هناك ما يقف عقبة فى سبيل نجاحهم فى امتحان الثقافة العامة اللهم إلا عددا قليلا منهم قصر فى التحصيل فى أثناء العام الدراسى أو شغلته أسباب خاصة أو لم يرزق من الذكاء إلا قدرا ضئيلا لا يتمكن معه من إصابة الغرض

وكذلك تفاوتت نسبة النجاح فى امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية فى المناطق المختلفة ، ولا شك أن من أسباب التفاوت الأسئلة فإننا إذا عقدنا موازنة بين أسئلة المناطق فىمواد الدراسة المختلفة ، وجدنا بينها فروقا واضحة فبعضها سهل قريب التناول وفى حدود مادرس التلاميذ ، وبعضها يحتاج إلى إنعام النظر وإلى دقة الفكر وإلى مقدار من التحصيل .

والواقع أن التلاميذ لم يوزنوا بميزان واحد ، مع أن الحقوق التى تترتب على النجاح فى هذا الامتحان واحدة للجميع .

هذه ملاحظات سريعة قصدنا بها توجيه الأذهان إلىمشكلات الامتحان والذى نرجوه أن يتفضل حضرة صاحب المعالى وزير المعارف بتأليف لجنة من أصحاب الرأى فى الوزارة تكون مهمتها البحث عنالأسباب التى أدت الى سوء النتائج فى امتحان الثقافة العامة وامتحان القسم الخاص وعن الوسائل التى تتخذ لعلاج أسباب الضعف فإن إنسانا لا يرضى أن يبذل المدرسون والمفتشونوالنظار والمراقبون هذا المجهود المضنى فى خلال العام الدراسى ثم تنكشف المسألة عن رسوب سبعين فى كل مائة من التلاميذ.

الكتب الدراسية

عدلت وزارة المعارف عن الطريقة التى جرت عليها منذ زمن وهى تكوين لجان من رجالها لتأليف الكتب الدراسية ومنحهم مكافآت على حسب ما يبذلون فى تأليف هذه الكتب من مجهود.

أما الطريقة الجديدة التى لجأت إليها فهى طريقة المسابقة التى يتقدم إليها كل من أنس فى نفسه الكفاية فى التأليف فى فرع من الفروع منفردا أو بالاشتراك مع غيره.

والكتاب الصالح يشترى حق تأليفه لمدة معينة قدرها أربع سنوات ولا يشترط أن يكون الكتاب خاضعا للمنهج فى حدوده وقيوده لأن الوزارة ترمى إلى أن تضع فى يد الطالب كتابا فى المادة أهم ما يراعى فيه مستوى الطالب والقدر من المادة الذى لا يخرج عن طاقته ولو كان فى ذلك بعض الخروج عن نقط المنهج مع المحافظة على أغراض المنهج وروحه

وقد استبعدت الطوائف الآتية من التقدم للمسابقة.

١ لجنة الكتب العليا

٢ المراقبون

٣ مساعدو المراقبين

٤ كبار المفتشين

٥ لجان وضع شروط مسابقات الكتب وفحصها

وقد اتسع المجال أمام النابهين من المدرسين الذين لهم قدرة على الإنتاج الناضج وتناول الطريف من الموضوعات والعرض الحسن ومسايرة عقول التلاميذ فى مختلف المراحل.

وأملنا أن يبرز أبناء دار العلوم ويصولوا ويجولوا فى هذا الميدان العلمى الواسع ليكون للتعليم من خبرتهم وجهودهم أوفى نصيب

التفاضل بين الشعراء

وآراء النقـــاد فى ذلك

للدكتور أحمد ضيف

لقد كان التفاضل بين القدماء والمحدثين، وبين المحدثين بعضهم وبعض - يرجع إلى مذهبين: مذهب الرواة علماء اللغة . ومذهب الفنيين البلغاء أو علماء البلاغة. فكان اللغويون والرواة كالأصمعى وأبى عمرو بن العلاء وابن الأعرابى وغيرهم يفضلون القدماء ؛ لأنهم عرب خلص لا يتطرق الخطأ اللغوى إلى كلامهم، فكلامهم حجة على صحة اللفظ والعبارة، وكثيرا ما كان هؤلاء العلماء والرواة يتجنبون رواية شعر المحدثين. ولشدة اعتقادهم أنه مملوء بالخطأ اللغوى قالوا: كان عمرو بن العلاء يقول (لقد حسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا روايته) يعنى بذلك شعر جرير والفرزدق ، فجعلوه مولدا بالإضافة إلى شعر الجاهليين .

لم يكن الفرق بين القديم والحديث عند هؤلاء إلا بتقدم الزمن، والنظر إلى صحة العبارة، فدعاهم ذلك إلى تفضيل القديم على كل حديث، والإقرار للقدماء بالفضل على غيرهم، وقد رووا فى ذلك ما حكاه الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء قال: « جلست إليه عشر حجج فما رأيته يحتج ببيت إسلامى » . وسئل عن المولدين فقال: « ما كان من حسن فقد سبقوا إليه . وما كان من قبيح فهو لهم » وقال القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى (المتوفى سنة ٣٦٦ هـ فى كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه : « وما أكثر من نرى ونسمع : من)

حفاظ اللغة ومن جلة الرواة ممن يلهج بعيب المتأخرين.إن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويعجب منه ويختاره ،فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذب نفسه ونقض قوله،ورأى تلك الغضاضة أهون محملا وأقل مرزأة من تسليم بفضيلةالمحدث،والإقرار بالإحسان لمولد.حكى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى أنه قال أنشدت الأصمعى .

هل إلى نظرة إليك سبيل فيبل الصدى ويشفى الغليل

إن ماقل منك يكثر عندى وكثير ممن تحب القليل

فقال: والله هذا الديباج الخسرواني.لمن تنشدني؟فقلت: إنهما لليلتهما،فقال: لاجرم أن أثر التكلف فيهما ظاهر »[1]

أما مذهب البلغاء ونقاد الكلام وأصحاب الأذواق الفنية وجلهم من الأدباء أو الشعراء ،فكانوا يفضلون الشاعر على غيره؛نظرا إلى ديباجته وحسن أسلوبه وحلاوة ألفاظه وجزالة معانيه ودقة عباراته ولطافة استعاراته أو تشبيهاته أو كناياته وغير ذلك مما يدخل فى صوغ الكلام وحسن العبارة. وقد غلب هذا المذهب على غيره حتى بنى عليه النقد الأدبى فى الشعر والنثر ، وساق الأدباء جميعا إلى التعمق فى نقد الأساليب والألفاظ فصاروا إذا حوموا حول نقد المعنى نظروا إليه من حيث أنه مدلول اللفظ لاغير،بدون نظر إلى صلته بنفس الشاعر أو بالحالة النفسية والاجتماعية اللهم إلا تلميحا لذلك أحيانا، ككلامهم عن شعر المتنبى وأبى العلاء من أن فيه شيئا من الفلسفة. على أن بعضهم أخرج هذا النوع من الشعر العربى ؛لأنه رأى أنه على غير طريقة العرب فى قول الشعر لتعمقه فى ضروب التفكير والفلسفة .

وقد امتلأت كتب النقد الأدبى بهذا المذهب البيانى،وقصر النقاد آراءهم فى الفضل بين الشعر على الصناعة اللفظية قال ابن قتيبه فى كتابه (الشعر والشعراء) عند تقسيمه الشعر ماملخصه : « تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب:

---

(١) الوساطة ص ٢٤٧

ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ... وضرب منه حسن لفظه وخلا معناه فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا . . . وضرب منه جاد معناه وقصرت الألفاظ عنه . . . وضرب منه تأخر لفظه وتأخر معناه» وقال فى موضع آخر: وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ولكنه قد يختار على جهات وأسباب منها الإصابة فى التشبيه الخ) .

وفى هذا دليل على أن الأدباء قد عنوا بالصناعة وبالوجهة الفنية عناية تدل على حسن الذوق ودقة الإدراك لمواضع جمال القول وتأثر نفوسهم بفنون الكلام، وقد كان لتعمقهم فى هذه المباحث وإمعانهم فيها أن دعوا بالشعراء والكتاب فى قواعد البلاغة وأصولها، وصرفوهم عن التفكير فى إيجاد أنواع أدبية أخرى، والعناية بالموضوعات الاجتماعية العامة. على أن لهذه الطائفة من النقاد آراء تحسب من الآراء الجيدة والأفكار السديدة فى نوعها، ولولا إيجازها الذى ألبسها ثوبا من الخفاء وما بها من الصناعة اللفظية التى تجعلها كأنها طلاء لكانت من أحسن ما كتب فى النقد الأدبى وأصحه. فمن ذلك أن بعض الأدباء سئل عن الشعراء، فقال السائل: «وسألته عن بشار فقال: نظار غواص، مطيل مجيد، يصف مالم يره وكأنه قد رآه، على أن فى شعره ظلا كثيرا» قلت :فمروان قال:«شاعر راض عن نفسه يستحسن كل ماجاء منه معجب لا يرى أن أحدا يتقدمه ، كثير الصواب كثير الخطأ ،ليس الشعر صنعته» .قلت: فمسلم قال :« خليع صاف يترع من بحر كالزند يورى تارة ويصلد أخرى» قلت فأبو العتاهية قال: غثاء جم واقتدار سهل وشعره كخرز الزجاج وربما أشبه الياقوت والزبرجد » قلت فابن الأحنف قال:« يلقى دلوه فى الدلاء فيغترف الصفو أحيانا والحمأة أحيانا على أن كدره أكثر من صفوه» قلت: فمسلم الخاسر قال:«مقل مداح شعره ديباج وعهن يموه الردىء حتى يشبهه بالجيد» قلت: فالعتابى قال:« عالم بأشعار العرب محتذ على مثالهم أحيانا وربما مال إلى تعقيد الكلام على أنه يروم مرامه من هاتين الجهتين» قلت:

فالخزيمى قال : « صنعته سهلة لا يكابر طبعه ولا يكدر فكره .. قلت: فأبو تمام قال: « سيل كثير الغثاء غزير العباء جم النطاف فإذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال . . قلت: فأبو دلامة قال : « جد وهزل ومجتنى ، مرغوب عنه إذا قصد مراما تناوله غثا وسمينا » قلت: فأبو الشمقمق قال: « هجاؤه لذاع ومديحه بلا ماء أكثره لا نفع فيه »[١].

وهناك آراء أخرى فى النقد والتفاضل بين الشعراء مرجعها الذوق أو الآراء الشخصية . كمن فضل البحترى ونسبه إلى حلاوة اللفظ وحسن التخلص ووضع الكلام فى موضعه وصحة العبارة وقرب المأتى وانكشاف المعانى وهم الشعراء المطبوعون وأهل البلاغة: ومثل من فضل أبا تمام ونسبه إلى غموض المعانى ودقتها وكثرة مايورده مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج وهؤلاء أهل المعانى والشعراء أصحاب الصنعة . ومن يميل إلى التدقيق وفلسفى الكلام[٢]

الموضوعات والمعانى والأساليب: لقد نظر أدباء العرب إلى أغراض الشعراء فى أقوالهم، فجعلوها أغراضا للشعر، وحصروا هذه الأغراض فى الغزل والوصف والفخر والمدح والهجاء والعتاب والاعتذار والزهو والأدب والتهانى والرثاء والخمريات وغيرها . وأرجع بعض الأدباء أغراض الشعر كلها إلى أربعة وهى المدح والهجاء والنسيب والرثاء وقالوا : قواعد الشعر أربعة: الرغبة والرهبة والطرب والغضب فمع الرغبة يكون المدح والشكر ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع . . . إلى آخر ماقالوا — وقال قوم : الشعر كله نوعان مدح وهجاء فإلى المدح يرجع الرثاء والافتخار والتشبيب وماتعلق بذلك من محمود الوصف ويدخل فى هذه الأمثال والحكم والمواعظ والزهد فى الدنيا . والقناعة والهجاء ضد ذلك »[٣].

(١) مقدمة ديوان أبى نواس لحمزة الأصبهانى (٢) راجع الموازنة للآمدى ص ٢. (٣) راجع باب حد الشعر فى كتاب العمدة لابن رشيق

وفصل هذا التقسيم قدامة بن جعفر (المتوفى سنة ٣٣٧ هـ) فى كتابه (نقد الشعر) فجعل لكل منها قواعد وشروطا يرجع إليها الشاعر عند نظم الكلام فى غرض من الأغراض وبين الصالح من الفاسد فى المعانى والألفاظ وتخير المعانى الجزئية كما قال فى المدح: «إنه لما كانت فضائل الناس. من حيث أنهم ناس. ومن طريق ماهم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ماعليه أهل الألباب من الاتفاق فى ذلك إنما هى العقل والشجاعة والعدل والعفة كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا، والمادح بغيرها مخطئا، وقد يجوز فى ذلك أن يقصد الشاعر المدح منها بالبعض والإغراق فيه دون البعض، مثل أن يصف الشاعر إنسانا بالجود الذى هو أحد أقسام العدل وحده فيغرق فيه ويتفنن فى معانيه أو بالنجدة فقط فيعمل فيها مثل ذلك أو بهما أو يقتصر عليهما دون غيرهما فلا يسمى مخطئا لإصابته فى مدح الإنسان ببعض فضائله لكن يسمى مقصرا عن استعمال جميع المدح، فقد وجب أن يكون على هذا القياس المصيب من الشعراء من مدح الرجال بهذه الخلات لا بغيرها والبالغ فى التجويد إلى أقصى حدوده من استوعبها ولم يقتصر على بعضها وذلك كما قال زهير بن أبى سلمى فى قصيدة له:

أخى ثقة لاتهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله

فوصفه فى هذا البيت بالعفة لقلة إمعانه فى اللذات وأنه لاينفد ماله فيها، وبالسخاء لإهلاكه ماله فى النوال وانحرافه إلى ذلك عن اللذات وذلك هو العدل ثم قال:

تراه إذا ماجئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله

فزاد فى وصف السخاء بأن جعله يهش له ولايلحقه مضض ولاتكره لفعله ثم قال:

فمن مثل حصن فى الحروب ومثله ... لإنكار ضيم أو لخصم يجادله؟

فأتى فى هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل فاستوعب زهير فى أبياته هذه المديح بالأربع الخصال التى هى فضائل الإنسان على الحقيقة وزاد فى ذلك . . . وإن كان داخلا فى هذه الأربع .

وهكذا سار جميع النقاد فى شرح الأغراض وأنواع الشعر المعروفة التى أخذوها من الشعراء الأقدمين حتى فى نظم القصائد وترتيب معانيها كما جاء فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦هـ) قال: «وسمعت بعض أهل العلم يقول: إن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن فشكا وبكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذكان نازلة العُمد فى الحلول والظعن على خلاف ماعليه نازلة المدر؛ لانتجاعهم الكلأ وانتقالهم من ماء إلى ماء وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبا ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه لأن النسيب قريب من النفوس ، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه بسبب ، وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام،فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل فى شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وإنضاء الراحلة والبعير ، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وزمام التأميل وقرر عنده مانال من المكاره فى المسير بدأ فى المديح فبعثه على المكافآت وهزه على السماح وفضله على الأشباه وصغره فى قدره الجزيل .

فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام ولم يطل ويمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد .....) . هذا فى جملته هو نظام القصيد ومنهج الصناعة فيه وهو الذى سنه النقاد ليكون نموذجا للشعراء المحدثين ثم قال ابن قتيبة بعد ذلك : وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن

مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام فيقف على منزل عامر ويبكى عند مشيد البنيان؛لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى أو يرحل على حمار أو بغل فيصفهما؛لأن المتقدمين رحلوا على الناقة أو البعير أو يرد على المياه العذبة الجوارى ؛ لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ،أو بقطع إلى الممدوح منابت النرجس والورد والآس ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار ..... » وقد رجع المحدثون إلى كل ذلك وإلى ما كان شائعا معروفا فى الشعر العربى القديم فلم يزيدوا شيئا عن تلك الموضوعات إلا التوسع فى بعضها .

وكأنما كان التميز بين القديم والحديث من جهة الصنعة لا غير لا من جهة الموضوعات ؛لأن الأدباء والنقادقالوا: إن المعنى فى وسع كل إنسان أما اللفظ واختياره فليس يقدر عليه كل كاتب أوشاعر، وإنما التفاضل بين الشعراء هو فى اختيار اللفظ وجزالته كما قالوا : كانت العرب ومن تبعها من السلف تجرى على عادة فى تفخيم اللفظ وجمال المنطق لم تألف غيره ولا آنسها سواه، وكان الشعر أحد أقسام منطقها،ومن حقه أن يختص بفضل تهذيب وينفرد بزيادة عناية، فإذا اجتمعت تلك العادة والطبيعة وانضاف إليها التعمل والصنعة خرج كما تراه فخما جزلا قويا متينا.وكان القوم يختلفون فى ذلك وتتباين فيه أحوالهم فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق الآخر(١) .

ويظهر من كل هذا أن الشعراء لم يزيدوا شيئا فى الموضوعات إلا التوسع فى بعضها كما توسع البحترى وابن الرومى فى الوصف وكما ذكر أبو تمام والمتنبى وأبو العلاء فى كلامهم الحكم والأمثال والاقتباس من كلام الحكماء حتى جعلوا من الشعر حكما ومن الحكم شعرا، ولا شك فى أن هذه الطريقة الجديدة والإكثار من الكلام فى هذه الموضوعات جعلت الشعر العربى كأنه انتقل من طور

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي عبد العزيز الجرجاني

الخيال الصرف والاقتصار على المسائل الخاصة إلى معالجة الكلام فى الموضوعات العامة النفسية والاجتماعية ،وهذا كل ماحصل من جديد فى أغراض الشعر بعد العصر الأموى .

أما المعانى والأخيلة فقد كان التجديد فيها أظهر والابتكار أبين. فإن كثيرا من المعانى الجزئية التى لم تكن معروفة قبل هذا العصر ظهر أثرها فى الشعر ، ولا تكاد تجد شاعرا خلا شعره من معنى جديد ابتكره من نفسه ، أو أخذه من غيره . من ذلك قول بشار فى المدح :

لمست بكفى كفه ابتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأتلفت ماعندى

ومن مبتكراته قوله :

قالوا : بمن لاترى تهذى فقلت لهم الأذن تعشق قبل العين أحيانا

وكقول أبى نواس :

ومستطيل على الصهباء باكرها فى فتية باصطباح الراح حذاق
فكل شىء رآه ظنه قدحا وكل شخص رآه قال : ذا الساقى

وكقول ابن المعتز فى قلم :

راكع ساجد يقبل قرطا سا كما قبل البساط شكور

وكما فى قول أبى العتاهية :

أحسن الله بنا أن الخطايا لاتفوح
فإذا المستور منا بين جنبيه نضوح

وقال بعض الحكماء : إنما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها ، فأخذ أبو تمام هذا المعنى وقال :

والحادثات وإن أصابك بؤسها فهو الذى أنباك كيف نعيمها

ومن معانى أبى تمام المبتكرة قوله :

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنقمة طالب

الأسلوب : أما أسلوب الشعر فى العصر العباسى فيختلف سهولة وانسجاما ورقة على حسب أمزجة الشعراء وتمكنهم من ملكة البيان فليس أسلوب أبى نواس كأسلوب أبى تمام، ولا أسلوب البحترى كأسلوب المتنبي وأبى العلاء، ولكن أسلوب الشعر فى هذا العصر فى جملته أسلوب سهل رقيق ؛لأن كثيرا من الموضوعات التى طرقها الشعراء كانت تستدعى رقة العبارة وحسن الإشارة وساعد الشعراء على ذلك أثر الحضارة فتهذبت أفكارهم وأخيلتهم وتربت ملكة الافتنان فيهم، وأظهر مايكون ذلك فى المدح والوصف . على أنه كان لبعض الشعراء الذين طرقوا الموضوعات الفلسفية كالمتنبي وأبى العلاء شىء من التعقيد فى كلامهم خرجوا به أحيانا عن أساليب الخيال المعروفة عند العرب، وقد يحمل الإمعان فى الصناعة بعض الشعراء كأبى تمام على الخروج من الرقة والانسجام إلى التكلف وتعمل الصنعة إذ من مميزات الشعر فى هذا العصر الإمعان فى الصناعة اللفظية وابتكار بعض الأوزان والمقطوعات وميل الشعراء إلى الإغراق فى أنواع البديع والإكثار من الاستعارات والتشبيهات حتى برعوا فى ذلك براعة لاتجارى بل تدعو إلى الدهشة والإعجاب .

وجملة القول : أن الأدباء يعتبرون للمولدين مذاهب فى الشعر. وأكثر هذه المذاهب ترجع إلى أساليب الشعراء وطريقتهم فى نظم الكلام، وهو على حسب رأيهم ينحصر فى أن منهم من يؤثر اللفظ على المعنى ويجعله غايته فيذهب إلى فخامة الكلام وجزالته من غير تصنع أو تكلف كقول بشار :

إذا ماغضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما
إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذُرى منبر صلى علينا وسلما

وقالوا: إن هذا النوع يجب أن يكون أسلوبا للمدح والفخر . ومنهم من

يذهب إلى سهولة اللفظ ولا يعنى بما عسى أن يكون من اللين المفرط كأبى العتاهية والعباس بن الأحنف ومن تابعهم وهم يرون الغاية فى قول أبى العتاهية

يا إخوتى إن الهوى قاتلى   فصيروا الأكفان فى عاجل
ولاتلوموا فى اتباع الهوى   فإننى فى شغل شاغل
يامن رأى منكم قتيلا بكى   من شدة الوجد على القاتل

وقد اعتبروا أن هذا الكلام بلغ النهاية فى سهولة الألفاظ وملاحة القصد وحسن الإشارة. ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته، ولا يبالى حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته كابن الرومى وأبى الطيب وماشا كلهما. ويذهب بعضهم إلى سهولة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع الصنعة المحكمة وكأنما يغتصب المعنى اغتصابا فيضعه فى قالب له كقول أبى تمام:

ولقد أراك فهل أراك بغبطة   والعيش غض والزمان غلام
أعوام وصل كاد ينسى طولها   ذكرى النوى فكأنها أيام
ثم أنبرت أيام هجر أردفت   بجوى أسى وكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها وكأنهم أحلام!!

ومن الشعراء من يسلك السهولة مع إحكام الصنعة وقرب المآخذ بدون أن يظهر على كلامه كلفة مثل البحترى فى قوله:

أيها العاتب الذى ليس يرضى   نم هنيئا فلست أطعم غمضا
إن لى فى هواك وجدا قد استهلك نومى ومضجعا قد أقضا
لجفونى فى عبرة ليس ترقا   وفؤادى فى لوعة ماتقضى
ياقليل الإنصاف كم اقتضى عندك وعداً إنجازه ليس يقضى.
أحينى بالوصال إن كان جودا   وأثبنى بالحب إن كان فرضا
بأبى شادن تعلق قلبى   بعيون فواتر اللحظ مرضى
لست أنساه إذ بدا من قريب   يتثنى تثنى الغصن غضا

واعتذارى إليه حين تجافى لى عن بعض ماأتيت وأغضى
أيها الراغب الذى طلب الجو د فأبلى كرم المطايا وأنضى
رِدْ حياض الإمام تلق نوالا يسع الراغبين طولا وعرضا
فهناك العطاء جزلا لمن را م جزيل العطا والجود محضا
هو أندى من الغمام وأجدى وقعات من الحسام وأمضى
يتوخى الإحسان قولا وفعلا ويطيع الآله بسطا وقبضا

وهكذا بلغت الصناعة فى هذا العصر ومابعده مبلغا عظيما . وهذه أمثلة من كلام المحدثين يستدل بها على مقدار خيالهم وقوة ابتكارهم فى الصناعة الشعرية ووصولهم إلى درجة قد تكون أحيانا غاية فى الكمال وقوة الخيال وحسن البيان، وأحيانا يظهر فيها التعمل والتكلف الذى قد يخرج بالكلام عن الشعر المطبوع إلى الكلام المصنوع ، ويجعل الشعر صناعة بحتة أومتكلفا كقول بعضهم يصف سواد شعر امرأة جميلة .

فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم

وكقول البحترى فى بركة المتوكل :

فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها وريق البرق أحيانا يباكيها

وكقول أبى نواس وهو من كلامه الرقيق يصف الخمر :

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم
صنعت فى الكأس إذ مزجت كصنيع الصبح فى الظلم

وكقوله أيضا فى ذلك :

قامت تريك وأمر الليل مجتمع صبحا تولد بين الماء والعنب
كأن صغرى وكبرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

وكقول مسلم بن الوليد :

مستعبر يبكى على دمنة ورأسه يضحك فيه المشيب

ومثل ذلك قول بعض الشعراء :

لاتعجبي ياسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

على أن كثيرا من هذه الأمثلة والتشبيهات والصناعةالشعرية كانت قبل العصر العباسى ،فقد قال الفرزدق :

والشيب ينهض بالشباب كأنه ليـل يصيح بجانبيه نهـار

ولكن المحدثين أمعنوا فى الصناعة وزادوا على ماكان معروفا، كما أنهم أبدعوا أيما إبداع فى كثير من أنواع الشعر حتى لقد رق شعرهم فيدب فى النفس دبيبا كما قال أبو نواس :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب
إن بكى يحق له ليس مابه لعب
تضحكين لاهية والمحب ينتحب
كلما انقضى سبب منك عاد لى سبب
تعجبين من سقمى صحتى هى العجب

أحمد ضيف

التمثل فى الأدب العربي

وحظ شعر المتنبى منه

للأستاذ على الجندى ناصف

المفتش بالمعارف

يحتاز الإنسان فى بعض مراحل القول، كاتبا أو متكلما — بمواقف يشعر فيها أنه بحاجة إلى سند من الحكمة المرسلة، أو القولة المأثورة، أو المثل السائر، أو النص البارع: يعزز به رأيه، أو يقيم حجته، أو يوضح مبهمة عرضت له، أو ينفى شكا يتوجس منه. وإذا وقع له من ذلك مايريد، ووفق فى إيراده واصطناعه — أحس كأنما أتيح له فيض من العون والتأييد فيما هو بسبيله، فيمضى راضيا مطمئنا.

وربما أغراه باصطناع هذه المقابس أو بعضها مجرد تذكرها، وتحرك الخاطر لها فى أثناء الكلام، لقوة المشاكلة بين المواطن التى قيلت فيها، والمواطن التى يراد إزجاؤها إليها. وقد يكون اصطناعها لمجرد الإدلال بفضل المعرفة وسعة الرواية، أو القصد إلى زخرفة القول وتزيينه، بما يمتزج به، أو ينضاف إليه من تلك المقابس؛ فترتاح النفس لهذه المراوحة، وتعجب بحسن الملاءمة بين الأصل ومايتراكب عليه، أو ينتثر خلاله. كما تعجب بجمال التحلية والتطريز فى الحياكة، أو التكفيت والتمويه فى النجارة.

هذا هو التمثل كما أريد الحديث عنه، وتلك بعض مقتضياته الحافزة عليه وهو ظاهرة طريفة من الظواهر الفنية، التى لابست الأدب العربى فى حالى

تقدمه وتقهقره، وظلت على العهد بها فى الحالين جميعا لم تكد تتأثر بما أصابه من التغير والتحول، كأنها إحدى خصائصه العريقة، أو سمة من سماته الملازمة. وما نرى فى هذا مجانبة للمألوف من طبيعة الأدب العربى، ولا المأثور من سجايا أهله. فالعرب كما لايخفى أهل فصاحة وبيان، وقد آتاهم الله حسا مرهفا، وعاطفة متقدة، وذكاء خاطفا. وكان للكلام البليغ عليهم سلطان. لايكاد يعدله سلطان، وكان لهم به ولوع شديد يحبون مناقلته، ولا يملون الاستماع له. وهل أيد الله رسوله ﷺ بحجة أبلغ، أو معجزة أغلب من القرآن الكريم ألم تكن آياته تتلى عليهم أبعد مايكونون من الله، وأشد مايكونون عتوا عن رسوله، وإصرارا على مناهضة دعوته، فما هى إلا أن تقرع أسماعهم حتى يؤخذوا ببلاغتها أخذا شديدا، يزلزل كيانهم، ويمحق أباطيلهم، ويسلبهم الكبرياء والجبروت. فإذا حميتهم خشوع. وإصرارهم انقياد واستسلام، وإذا هم يهرعون إلى الله مذعنين، يجاهدون فى سبيله أصدق الجهاد وأخلصه، غير ضانين بجهد ولا حياة ولا مال ولا ولد؟ ألم يكن النبي ﷺ يقول عن شعرائه: هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبال. ويقول لحسان (رضى الله عنه): اهجهم (يعنى قريشا)، فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام؟ ولأمر ما يقول معاوية: يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب[1]. وكان الخلفاء يأخذون أبناءهم برواية الشعر والبصر بغريبه ومشهوره. وكانوا يكبرون شأن الرواة، كأفضل مايكبرون من شأن الكفاة وذوى الأقدار فى الدولة: يكرمون وفادتهم إذا حضروا، ويفتقدونهم إذا غابوا. ولقد كان الخليفة يأرق بعض لياليه، أو يتوق إلى سماع قصيدة بعينها، أو يتذكر شطر بيت ولا يتذكر قسيمه، فيبعث فى طلب الراوية، يأمر أن يوافيه من فوره؛ ليلتمس عنده مايشتهى. وقد يكون مهاجرا أو

(١) العمدة: ١: ١٠، ١٢.

على نأى منه ، فلا يثنيه عن طلبه بعد الشقة وعقابيل الطريق ، فشاعت الرواية، ونفقت سوقها دهرا طويلا ، حتى كانت الصفة المشتركة ، بين رجال الثقافة والفكر ، مامنهم إلا له نصيب منها ، ومشاركة فيها ، أيا كانت صناعته . وربما وصل فيها مع مايحسن من علم أو فن إلى مرتبة المبرزين الثقات ، فأضيف إلى جملة الرواة وحفاظ اللغة . بل لقد كان كثير من ذوى المهن الدنيا كالسقاة والقيان يتعاطون الأدب ، ويأخذون بحظ من الرواية.

وجاء منها العلماء والأدباء المؤلفون بالعجب العجاب ، وإنك لتقرأ من كتبهم ماتقرأ ، فيبهرك منها تقصى الشواهد ، واستقراء النظائر ، وإزجاء الأمثلة من المنظوم والمنثور ، والجاهلى والإسلامى ، حتى مانكاد تدرى أى أمر يهم أعجب وأغرب : أهذه الرواية الدافقة المتبحرة ، أم هذا التصنيف فى إيرادها ، وحسن التمثل بها ، والاستنباط منها ؟

فلا عجب أن نرى القوم قد مزجوا الأدب بالحياة ، وتعاطوه فى الصغير والكبير من أمورها : لايدعون حادثة تحدث ، ولا سانحة تسنح فى جد أو لعب ، إلا كان للأدب بينها مجال ، وله فيها مقال :إما بالرواية ، أو الإنشاء : يروون فيها مقالة الأولين ولا زيادة ، إذا كان لهم فيها مقال ، وكان لهم منه كفاية وبلاغ ، وإلا ففى نتاجهم عديل له ، أوإضافة إليه ، أوابتكار يتفردون به ؛ فإذا لهم على الحالين طرب يزيد سرورهم ، أو عزاء يذهب الحزن عنهم ، أو مسلاة تطفىء لوعتهم ، أو قبس يلهب نار الحماسة ، أو إشراقة نور تهدى للتى هى أقوم .

ذلك شأن التمثل إبان ازدهار الأدب ، ويَنْع ثماره . وهو كذلك إبان ذبول الأدب وجفاف مائه قد وجد مايكفل له الحياة ، ويهيىء له أسباب التداول ، ولكنها كانت حياة من نوع آخر يخالف تلك الحياة ، كانت حياة يغلب عليها التشابه والركود ، ويندر فيها التنويع والحركة ؛ لأن الأدباء يومئذ

أقزام مقلدون ، ليس لهم من طول الباع ، ورسوخ الملكة ، وخصب الذهن ، وبراعة الخيال حظ كبير ، يقدرون معه على التوليد والابتداع ، فأقبلوا على آثار الأولين : يتكلفون محاكاتها ، ويعتسفون الأخذ على مثالها . ولماأعيتهم المحاولة ، ولم تسعدهم المواهب لم يجدوا بدا من استباحة هذه الآثار ، ينتحلون منها ماشاء الله أن ينتحلوا بالسرقة والاقتباس والتضمين وحل المنظوم .

فالتمثل كما أسلفنا — قد لازم الأدب فى حالى تقدمه وتقهقره جميعا . وهو فى العصر الحاضر قليل الذيوع لانكاد نراه فى غير الموضوعات المدروسة ، والمذكرات الفنية الجليلة . وأكثر مايتمثل به فى هذه وتلك آيات الكتاب الحكيم ، وأحاديث الرسول عليه السلام ، وأقوال الثقات فى شتى العلوم والفنون . أما الأمثال والحكم وما إليها فالتمثل الآن بها قليل ، لايكاد يعنى به ويحرص عليه إلا الشداة وقليل من غيرهم ؛ لأهمال شأن الرواية ، واندثار السوامر الأدبية التى كان يختلف إليها الأدباء أواخر القرن الماضى ، وأوائل القرن الحاضر ؛ للتندر بالطرائف الأدبية ، والمطارحات الشعرية ، بما اعترى المجتمع اليوم من أسباب التغيير ، وما استحدث فيه من وسائل اللهو والتسلية ، التى لاصلة لها بالرواية إلا فى القليل النادر . ثم إن الأدب لعهدنا الحاضر يتأثر الأدب الغربى فى طريقة التفكير وأسلوب التعبير ، فأصبح أكثر المعول فى الإقناع ، وعرض المذهب ، ومحاجة الخصم على الآراء الفلسفية والبراهين المنطقية ، تزجى فى عبارة طبيعية ، بعيدة من الشقشقة اللفظية ، وزخرف البديع .

وقد يكون للتمثل بالشعر كل ما كان له من المقام الذى أنشىء فيه ، من بلاغة التأثير ، وقوة الأسر ، لاينقص منهما شىء . قال معاوية: اجعلوا الشعر

أكبر همكم. وأكثر دأبكم. فلقد رأيتنى ليلة الهرير[١] بصفين، وقد أتيت بفرس أغر محجل، بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى، فما حملنى على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة:

أبت لى همتى، وأبى بلائى — وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقحامى على المكروه نفسى — وضربى هامة البطل المشيح[٢]
وقولى كلما جشأت، وجاشت — مكانك، تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحات — وأحمى بعدعن عرض صحيح[٣]

بل ربما كان التمثل بعض الأحيان أبلغ أثرا، وأروع صورا، وأعظم نتائج؛ لأن الكلام لا يؤثر ببراعة تأليفه، وشرف معانيه، ونصاعة بيانه وحسب، ولا يدل على معانيه بألفاظه وحدها، لكن هناك وسائل أخرى تشترك فى التأثير والدلالة بنصيب غير قليل. هناك شخصية المتكلم، وطريقة أدائه، ونغمات صوته، وانسجام إيماءاته، وتأثره بموقفه، والجو الذى يحيط به. ولأمر ماشرع التطريب وترجيع الصوت فى تلاوة القرآن الكريم [٤]. ولأمر ما كذلك آثر الناس أن يخطبوا من قيام، وعلى المنابر واستحسنوا أن يكون الخطيب رابط الجأش، قليل اللحظ، جهير الصوت، نظيف البزة شريف النفس، عاملا بما يقول.

لهذا، قد تسمع البيت أو المقطعة من الشعر فى المناسبة التى أنشئت لها،

(١) هى ليلة الجمعة عاشر صفر سنة ٣٧ هـ. وفيها استمر القتال شديدا بين جيوش على ومعاوية، ورفعت المصاحف فى غدها على رءوس الرماح من قبل أهل الشام طلبا للاحتكام إلى كتاب الله. وسميت ليلة الهرير تشبيها لها بليلة اليوم الثالث من أيام حرب القادسية. ولم يمر على المسلمين موقعة أشد هولا منها.

(٢) المقبل، والمانع لما وراء ظهره (٣) العمدة: ١ : ١٠

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١ : ٩، وأمالى المرتضى: ١ : ٢٤ — ٢٨.

فإذا الصورة التى توحيها إليك تافهة المناظر ، حائلة الألوان ، فاترة التأثير ، ثم يروى لك هذا البيت أو هذه المقطعة نفسها فى مناسبة أخرى جامعة لأسباب التأثير ؛ فإذا بك ترى كأن الصورة غير الصورة ، وتتمثل لك منها مناظر أشد عملا ، وأعمق أثرا . ومثل ذلك مثل النظرية العلمية أول عهدها بالظهور، وأول عهد العلماء باصطناعها فى شئون الحياة ، فهى يومئذ فكرة أولية ، محدودة النطاق ، يسيرة النتائج ، حتى إذا أتيح لها جهد آخر أمكن التوسع فى تطبيق حقائقها . والتنويع فى استخدام قضاياها ، فإذا لها آثار ضخام ،ونتائج عجيبة لم تكن لها من قبل ، ولم يكن شىء منها يخطر ببال صاحبها .

هذا مثلا قول المتنبى :

فالخيل ، والليل ، والبيداء تعرفنى والسيف ، والرمح، والقرطاس، والقلم

فهذا البيت فيما يروى الرواة — كان سبب قتل المتنبى . حدثوا أنه بينما كان عائدا من فارس عرض له فى بعض الطريق جماعة من الحاقدين عليه ، يريدون الفتك به . فلما رأى المتنبى أن الغلبة عليه لاذ بالفرار ، لكن واحدا من أتباعه صاح به : لايتحدث الناس أنك فررت ، وأنت القائل : فالخيل ، والليل . البيت . فقال المتنبى : قتلتنى قتلك الله · وكر راجعا ، ومازال يقاتل حتى قتل (١) . فمن كان يظن قبل أن يقتل المتنبى على هذه الصورة — أن سيكون لهذا البيت شأن فى قتله ؟ إن المتنبى ومعه الذين سمعوا البيت أو قرءوه ما كانوا ليصدقوا فيما أعتقد — أن سيكون لهذا البيت هذه النتيجة الفاجعة لو أنهم علموا نبأها قبل أن تقع . وهل هو إلا بيت نظمه الشاعر كما نظم كثيرا غيره ، وكما نظم الشعراء كثيرا مثله ، لمجرد الفخر الذى لا أصل له ، أو الذى يقوم على التهويل والمبالغة ؟ إنه عمل أشبه بعبث الصناعة وأقرب إلى الهزل منه إلى الجد ، فكيف يمكن أن يظن ظان أن سيصير وثيقة ملزمة ، يتقيد

(١) الصبح المنبى على هامش التبيان : ١ : ٢٣٧ ، ووفيات الأعيان : ١ : ٤٤

الشاعر بها ، وينزل على حكمها حين يذكره بها مذكر ، فيعدل عن الرأى الذى رآه ، واطمأن إلى أنه الصواب ، ويعود راجعا إلى القتال ، وإنه ليعلم علم اليقين أن العود إليه إقدام على الموت ، مافى ذلك مرية ولاخلاف . وإلا فما قوله لغلامه وهو يعود : قتلتنى قتلك الله ؟ لكنه (الإخراج) الذى أخرج عليه البيت فى هذه القصة ، بعد أن هيأت الظروف ملابساته ، ورتبت مناظره ، وخلقت الجو الذى يكتنفه .

وهذا أيضا قول معن بن أوس من قصيدته العتابية المشهورة :

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فنحن من هذا البيت ، وفى ضوء المقام الذى قيلت القصيدة فيه — تجاه صديقين يختلفان فى المزية والطبع ، وفى أدب السلوك ومعاملة الأصدقاء ، ولكن قدر لهما مع ذلك أن يجتمعا حينا على المودة والوفاق ، فتصادقا وتصافيا ، كما يتصادق الناس ويتصافون ، ثم ضربت بينهما فوارق الخلاف ، فتناكرا وتدابرا ، كما يتناكر الناس ويتدابرون كذلك ، فوقف كلاهما من من صاحبه حينئذ بالموقف الصريح الذى يقتضيه طبعه ، وتوحى به فلسفته فى الصداقة ، وتقديره لحقوق الأصدقاء وواجباتهم : هذا قاطع معرض ، لايكاد يبقى على الصديق ، أو يحاول علاج مافسد من وده . وذاك وصول متسامح ، لايجزى على الجفوة بالجفوة حتى يبلى عذرا فى الاستصلاح والمعتبة . فهولذلك يحاول ماوسعته الحيلة أن يجتذب إليه صاحبه بألوان من أسباب التواصل والمراجعة . وهو هنا فى هذا البيت صارم جاد ، يتهد وصديقه بفرقة الأبد ، وبالخصومة لارجعة فيها ، إذا هو لم يحاسب نفسه ، ويكفكف من غلوائه .

هذه هى الصورة التى أراد معن أن يعرضها علينا فى هذا البيت ، وفى كنف القصيدة التى اقتطع منها . وهى ولاشك صورة مؤثرة ، فيها من براعة الفن ، وروعة التخيل ، وصدق التمثيل ، وإصابة الفكرة . ولكن أين هى من تلك

الصورة الهائلة، التي تتمثل لنا من البيت نفسه، حين نسمعه من خليفة عظيم، أو نتخيل أننا نسمعه منه، وهو يجبه به سيدة كريمة، طالما استشفعت إليه فشفعت، وأدلت فدللت؟ نعم، أين هي من تلك الصورة المفجعة، تتمثل لنا في هذا البيت نفسه حين نسمع الرشيد، أو نتخيل أننا نسمعه، وهو يقذف به في وجه ظئره أم جعفر بن يحيي، حين جاءته على الصورة التي وصفتها كتب الأدب: حاسرة حافية، تريد أن تشفع عنده في زوجها يحيي؟ إننا ولاشك نرى ونحس هنا غير ما كنا نرى ونحس هناك، إننا هنا نرى العزة المهيضة، والكرامة السليبة في جانب، والجبروت القاهر، والسطوة الباطشة في جانب آخر. هي تجمع شتاتها، وتتوسل بأسبابها، لعلها تهيج عاطفة همدت، وتلين قسوة رانت، إدلالا بحرمة سابقة، واستجابة لداعي الوفاء والحب لبعلها. وهو تجاهها ساخط متغضب، بل حائر مرتبك، لا يستطيع التملص من ورطته، ولا الإفاقة من غشيته، ولا الإصاخة لغير صوت النقمة والإيقاع بمن خسر عطفه وثقته، ولا يجد بدا من دفعها عما تحاول، فيقول لها فيما قال:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد ... إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فيفجعها في رجائها فجيعة أليمة، ويمثل لها هول المصير الذي يترقبها ويترقب أسرتها معها تمثيلا قاسيا يمثل لها البطش المصمم، والفتك الجائح الذريع، يزهق أرواحا غالية، ويهدم جاها شامخا، ويذهب بدنيا عريضة، وعز مؤثل منيع.

وبعد، فإن الشعر كالشعراء: منه الذائع المدوى، يكثر دورانه على الألسنة، وتشيع روايته في شتى العصور، ومنه الخامل المغمور، لا يرويه إلا القليل، أو لا يكاد يرويه أحد. وبين هذين الطرفين درجات ومنازل، هيهات أن تحصى. وليس كل مشهور مقدما، ولا كل مغمور متخلفا، فالتقدم من أسباب الشهرة، لكنه ليس سببها الوحيد. والتخلف من أسباب الخمول،

لكنه ليس سببه الوحيد كذلك . فهناك الحظ وماتهيأ له من سعادة وعثار ، وهناك الدعاية وحسن العرض أو الانقباض والإخلاد إلى اليأس ، ثم هناك الشخصية المحبوبة الخفيفة الروح ، والشخصية البغيضة المسترذلة ، وهناك أسباب وملابسات أخرى ، لها فى تغيير قيمة الآثار الأدبية عمل غير مردود .

وربما اعترى الجيد العين بعض أسباب الخمول ، فإذا هو زائف أو كالزائف لايكاد يجد مجالا للتداول والاستعمال . وقد يتاح للردىء ، المتخلف أو المتوسط المقارب بعض أسباب الذيوع ، فإذا له من الشهرة والإقبال أكثر مما يستحق . على أن الخلود فى النهاية لمستحق الخلود ، لاظلم ولامحاباة ، فإن الزمن صيرف نقاد لاينفق الزيف لديه ، وحكم عدل لايغبن ولايجور . وإن كان من ذلك شىء فيما يبدو للنظرة الأولى فإنما هو عارض إلى زوال ، بل محنة إلى أجل محدود ، يختلف مداه بمقدار ماتهيأ لهذا أو ذاك من أسباب الرواج أو الكساد الموقوت . حتى إذا انجابت الغاشية ، ولم يبق إلا المعدن خالصا مجردا ، آل إلى مصيره الحق ، الذى أعدته له قيمته ، كما تريد صراحة الطبيعة، لا كما تريد أهواء الصناعة . وماأصدق قول الله تعالى : (فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

وإذا كانت قيمة الشعر على مقدار حظه من الخلود ، وشيوع التداول ، وعموم الإفادة ، فشعر المتنبى أرفع الشعر العربى قيمة ، وأفضله مزية . فما عرف تاريخ الأدب العربى شعرا مثل شعره : فشت روايته فى الناس ، وكثر تمثلهم به ، واقتباسهم منه ، واستفاض فضله على اللغة والأدب والثقافة ، بما أمدها به من فيض كثير ، لامقطوع ولا ممنوع ، من لدن حياته فى القرن الرابع الهجرى إلى اليوم . قال الثعالبى ، وعصره من عصر المتنبى جد قريب [1]: فليست اليوم مجالس الدرس بأعمر بشعر أبى الطيب من مجالس الأنس ولا أقلام كتاب

(١) ولد الثعالبى سنة ٣٥٠ ، وتوفى سنة ٤٢٩ .

الرسائل أجرى به من ألسن الخطباء فى المحافل، ولا لحون المغنين والقوالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين [١] . وقال ابن رشيق فى العمدة: وليس فى المولدين أشهر اسما من الحسن أبى نواس، ثم حبيب والبحترى. ويقال إنهما أخملا فى زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد، ثم يتبعهما فى الاشتهار ابن الرومى وابن المعتز، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن فى المولدين، وامرىء القيس فى القدماء، فإن هؤلاء الثلاثة لايكاد أن يجهلهم أحد من الناس. ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس [٢].

نعم، فقد فرض المتنبى شعره على الناس فرضا، ودفعهم قسرا إلى مدارسته والأخذ عنه فى شتى الأغراض والمقاصد، بالرغم من كثرة خصومه، وتصدى حاسديه لمحاربته، بما ألفوا من الرسائل والكتب فى الغض من فضله، والإزراء بقيمة شعره، وما دبروا له من المكايد، وحاكوا حوله من الدسائس حيثما حل، وبما أذاعوا عنه من النقائص، وكالوا له من المطاعن فى نسبه وأسرته، وفى نفسه وخلقه وكل مايشين الطعن فيه. بل لعل هذه الحرب نفسها كانت من أسباب شهرة الرجل ودلائل عظمته، فالحق لايعدم أنصارا يتطوعون لتقرير مبادئه، والدعوة إلى الاعتراف بها. ولهذا تجرد لأولئك الخصوم طائفة من المعجبين به، تعصبت له، وحاولت ما أمكنها الجهد أن تلمس له المعاذير فى كل ما أخذ عليه، وتوسطت طائفة أخرى بين هؤلاء وهؤلاء، تفاضل بين محاسنه ومساويه، وتعدد ما له وماعليه. وليس لهذا الاختلاف المثلث الأطراف عاقبة أقرب من الشهرة الواسعة، ينالها الذى وقع الخلاف عليه. وما أحسب أن المتنبى كان يستطيع أن يصنع لنفسه أفضل مما صنع له هؤلاء الناس عن قصد أو غير قصد. ثم لماذا يختصم الناس

(١) أبو الطيب المتنبى: ص ٧، والصبح المنبى على هامش التبيان: ١: ٤٢٧.

(٢) العمدة: ١: ٦٣ — ٦٤.

فى المتنبى هذا الاختصام العنيف. ويتفرقون فى شعره على هذا النحو: بين متعصب عليه، ومتعصب له، ومتوسط بين هذا وذاك؟ وهل كان يكون ذلك لو أن حاسديه لم يتوسموا فيه خطر الشأن، ويتوقعوا أن يجيئهم منه حدث جسيم، يجب الجهاد لمقاومته والوقوف دون استفحاله؟ وهل كان يكون ذلك أيضا لو أن أنصاره لم يقدروا أن السكوت عن نصرته سكوت عن اعتداء ظالم لايجوز السكوت عنه؟ هيهات. فالناس أكيس من أن يثيروا حربا كهذه إلا لخطب عظيم، يكافئها وتكافئه.

لم ينل إذا خصوم المتنبى منه منالا أو بعبارة أصح — لقد أعانوه على بلوغ الأوج، واستيفاء غاية الشهرة والمجد، من حيث كانوا يحتسبون أنهم نازلون به أو مانعوه من المضى صعدا إلى وجهته.

وهكذا لايرد الناس ما أراد الله. ومن يحاول التغيير من طبائع الأشياء أو يطمع فى صرف السنن عن وجوهها، فإنما يحاول محالا، ويطمع فيما لا مطمع فيه. ثم لايلبث أن يرى الحرب التى يثيرها تنقلب هزيمة له، وتمكينا لسلطان الطبيعة القاهر، ويستبين أنه كان يخدمها، ويدل على مزاياها من حيث يظن أنه كان يقاومها ويوارى من حقيقتها.

ولعل من المهم قبل أن نتحدث عن حظ شعر المتنبى من التمثل أن نعرض صورة لما كان عليه شعره أول الأمر من كساد، وما كان يعانيه هو من سوء الحال وهوان الشأن، ثم نعرض صورة أخرى لما صار إليه شعره بعد ذلك من رواج وحسن تقدير، وماصار إليه هو من رفاهة العيش وجلالة القدر، فسنرى من هذه وتلك مبلغ الفرق بين مبتدئه ومنتهاه، ويتجلى لنا حينئذ مثال بليغ من أمثلة المجد الذاتى الأصيل، الذى تستطيع العبقرية الفنية أن تقيمه للعصاميين من أصحابها. إليك إذا بعض ماقال أيام شقائه.

إلي كمْ ذا التخلفُ والتواني   وكمْ هذا التمادي في التمادي

وشغل النفس عن طلب المعالي ... ببيع الشعر في سوق الكساد ؟

وقال :

لما أقمت بأنطاكية اختلفت ... إلىّ بالخبر الركبان في حلبا

فسرت نحوك لا ألوى على أحد ... أحث راحلتىّ : الفقر والأدبا

إذاقني زمني بلوى شرقت بها ... لو ذاقها لبكى ماعاش وانتحبا

وقال :

كيف الرجاء من الخطوب تخلصا ... من بعد ما أنشبن فىّ مخالبا ؟

أوحدنني ، ووجدن حزنا واحدا ... متناهيا ، فجعلنه لى صاحبا

ونصبنني غرض الرماة تصيبني ... محن أحد من السيوف مضاربا

أظمتني الدنيا ، فلما جئتها ... مستسقيا ،مطرت على مصائبا

وحبيت من خوص الركاب بأسود ... من دارش؛ فغدوت أمشى راكبا[1]

ويروى أنه كان أول الأمر يطوف في أطراف الشام ، ويتنقل بين مدنه، يعرض شعره على الناس ، ويسألهم الأجر عليه ، صنيع التاجر المتنقل ، يحمل بضاعته ، ويطوف بها في البلاد هنا وهناك ، إلا أن مثل هذا التاجر يبيع سلعا وصاحبنا كان يبيع نفاقا وملقا . وكانت العطايا التي يأخذها مع ذلك تافهة قليلة الغناء ، لاتستحق السؤال ، ولاتعدل الجهد الذى كان يبذل فيها .

روى البغدادى أنه مدح بأقل من عشرة دراهم ، بل بأقل من خمسة [2] .

وروى ياقوت أن محمد بن زريق وصله بعشرة دراهم على قصيدته التي أولها :

هذى برزت لنا فهجت رسيسا ... ثم انثنيت ، وماشفيت نسيسا[3]

---

(١) الخوص : جمع خوصاء ، وهى الناقة الغائرة العينين من الاعيا . الدارش : نوع من الجلود . يريد أنه بدل من خوص الركاب خفا أسود من ردىء الجلود .

(٢) خزانة الأدب : ٢ : ٣٠٥ .

(٣) الرسيس : الشيء الثابت . ويريد به هنا الهوى المستقر في قلبه . النسيس : بقية النفس .

فقال قائل : إن شعره لحسن . فقال : ما أدرى أحسن هو أم قبيح ، ولكن أزيده لقولك عشرة دراهم فكانت صلته عليها عشرين درهما [١] .

وهذا بعض ماقال أيام رخائه وإقبال الدنيا عليه . قال يصف ثيابا أهداها إليه سيف الدولة :

ثياب كريم مايصون حسانها إذا نشرت كان الهبات صوانها
ترينا صناعُ الروم فيها ملوكها وتجلو علينا نقشها وقيانها
ولم يكفها تصويرها الخيل وحدها فصورت الأشياء إلا زمانها
وما ادخرتها قدرة فى مصور سوى أنها ما أنطقت حيوانها

وقال من قصيدة فى مدح سيف الدولة أيضا :

ناديت مجدك فى شعرى وقد صدرا ياغير منتحل فى غير منتحل
بالشرق والغرب أقوام نحبهم فطالعاهم ، وكونا أبلغ الرسل
وعرفاهم بأنى فى مكارمه أقلب الطرف بين الخيل والخول

ويقول الرواة : إن أبا الطيب لم يقدم على الرملة لمدح أميرها أبى محمد بن طغج إلا بعد مراسلات أرسلها الأمير إليه ، قالوا وكان بالرملة إذ ذاك رجل من الأشراف يسمى طاهر بن الحسين العلوى ، فرغب الأمير إلى أبى الطيب أن يمدحه ، فاعتذر أبو الطيب ، وقال : ماقصدت سوى الأمير ، ولا أمدح إلا إياه . ولما طالت مسألة الأمير ، واشتد إصرار الشاعر ، قال له الأمير : كنت عزمت أن أسألك قصيدة أخرى فى مدحى ، فاعملها فى مدح طاهر ، وضمن له عنده مائة دينار ، فقبل . ولما كان الموعد قام أبو الطيب فى جماعة حتى دخلوا على طاهر ، وعنده جماعة من أشراف الناس ، فنزل طاهر عن سريره ، وتلقى أبا الطيب ، وسلم عليه ، ثم أخذ بيده ، وأجلسه مكانه ،وجلس

(١) معجم الأدباء : ٥ : ٢٠٣ — ٢٠٤ بتصرف .

هو بين يديه ، حتى أنشده القصيدة [١] . ومطلعها :

أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب   وردوا رقادى فهو لحظ الحبائب

وروى البديعى أن سيف الدولة كان يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد . وروى أيضا أنه لما ارتحل عن سيف الدولة مغاضبا له طلب كافور إلى واليها أن يحبب إليه الوفود على مصر وشهود حضرة الأمير . ولما وصل إلى الرملة أكرم الوالى وفادته ، وأهدى إليه هدايا نفيسة ، ثم خلع عليه ، وقلده سيفا محلى ، وحمله على فرس بمركب ثقيل . قالوا ولم يكن كافور يثق أن المتنبي سيقدم عليه ، ويقبل أن يمدحه ، حتى بعد أن وصل إلى الرملة ، ولذلك كان يقول لجلسائه وخاصته قلقا متوجسا : أترونه يبلغ الرملة ولا يجيئنا [٢] ؟ كأنه كان يستعظم هذا الشرف ، ولا يصدق أن المتنبى يراه له أهلا ، فهو لذلك يفزع إلى الملأ حوله ، يتلمس عندهم كلمة طيبة ، ترد عليه نفسه ، وتدخل السكينة فى قلبه .

ولما انقضت أيامه فى مصر ، وفر إلى بغداد تكبر على أهلها ، وأبى أن يمدح أحدا منهم ، فاغتم لذلك معز الدولة والوزير المهلبى ، وتمنيا لو كان فى المملكة من يستطيع منازلته فى ميدانه ، والنيل من كبريائه وغروره . وهنا نقدم أبا على الحاتمى ، وندع له الكلمة ، ليحدثنا عن موقف الشاعر من الأمير والوزير ، وموقف هذين منه . وهو أحق من يحدثنا فى هذا المقام ، لأنه كان ذا صلة بالطرفين وهو الذى تولى مبارزة الشاعر فى تلك المناظرة الرائعة التى أثارها الحاتمى ، انتقاما منه ، وغضبا لكرامة بغداد . قال أبو على : كان أبو الطيب عند وروده مدينة السلام قد التحف برداء الكبر والعظمة ، يخيل له أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر لا يغترف عذبه غيره ، ولا يقطف نوره

---

(١) التبيان : ٢ : ٣٥٠ ، و : ١ : ٩٥ ، والصبح المنبى على هامش التبيان : ٢ : ١٠٩ — ١١٣ .

(٢) الصبح المنبى : ١ : ١٠٩ — ١١٠ .

سواه ، ولا يرى أحدا إلا يرى لنفسه مزية عليه . حتى إذا تخيل أنه نسيج وحده، وأنه مالك رق العلم دون غيره ، وثقلت وطأته على أهل مدينة السلام ، وطأطأ كثير منهم رأسه ، وخفض جناحه ، واطمأن على التسليم جأشه، وتخيل أبو محمد المهلبى أنه لا يتمكن أحد من مساجلته ومقارعته ، ولا يقوم لمجادلته والتعلق بشىء من مطاعنه ، وساء معز الدولة أن يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه ، ولم يكن بمملكته أحد يماثله فيما هو فيه ، ولا يساويه فى منزلته ، يبدى لهم عواره ، ويخفى آثاره . . . فتوخيت أن يجمعنا مجلس ، أجرى أنا وإياه فى مضماره ؛ ليعرف السابق من المسبوق ، فلما لم يتفق ذلك قصدت مجلسه . . . إلى أن قال : وتشاغلت بقية يومى بشغل عنّ لى ، عن حضرة الوزير المهلبى ، وانتهى إليه الخبر ، فأتتنى رسله ليلا ؛ فسرت إليه ، وقصصت عليه القصة بتمامها ، فحصل له من السرور والابتهاج بما جرى، ما بعثه على مباكرة معز الدولة ، وأخبره بكل ما أخبرته به . وأخبرنى الرئيس أبو القاسم محمد بن العباس أنه بمجرد دخوله على معز الدولة قال : أعلمت ما كان من أبى على الحاتمى والمتنبى ، فإنه شفى منه صدرا (١) .

بل لقد خرج الحنق على المتنبى بالوزير المهلبى عما كان يجمل به من الترفع والرزانة ، ودفعه إلى تحريض الشعراء عليه ، وإغرائهم بهجائه ، لكن المتنبى أعرض عنهم ، وأبى أن يجيبهم ، استصغارا لأقدارهم، وذهابا بنفسه عن مجاراتهم ولما قيل له فى ذلك قال : إنى فرغت من إجابتهم بقولى لمن هو أرفع طبقة منهم فى الشعر :

أرى المتشاعرين غروا بذمى ومن ذا يحمد الداء العضالا ؟
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا (٢)

---

(١) الصبح المنبى : ١ : ١٤٤ — ١٧٣ .
(٢) المصدر نفسه : ١ : ١٧٦ .

وكان الصاحب بن عباد يطمع أن يزوره المتنبي بأصفان ، ويمدحه كما مدح أكابر عصره . وكان الصاحب يومئذ لايزال شابا ، ولم يكن استوزر بعد ، فكتب إليه يستدعيه ، ويتلطف له ، ويعده أن يشاطره جميع ماله ، فلم يقمله المتنبي وزنا ، ولم يجبه عن كتابه .

وكان ابن العميد يتتبع أخباره ، ويعرف أن الناس يتقربون إليه ، ويغالون بمدائحه ، وهو يتثاقل عنهم ، ويذهب بنفسه عن مدح الوزراء ، فلما سمع أنه خرج من بغداد متوجها إلى فارس ، ساورته الوساوس وركبه الهم ؛ خشاة أن يصدف عن قصده ، ويعامله معاملة المهلبي [١] .

(للحديث بقية)

علي النجدي ناصف
مفتش المعارف بالإسكندرية

(٣) المصدر نفسه : ١ : ١٨٠ — ١٨٣ .

تيسير اللغة العربية وتهذيبها

– ٢ –

للأستاذ محمد على الدسوقى

المبحث الخامس

فى الوسائل التى تساعد على ضبط اللغة

من الأدوية الناجعة فى تهذيب اللغة : التمثيل ، والخيالة (السينما) الناطقة والصحف اليومية ، والمجلات ، والإعلانات ، ومرافعات المحامين والخطابة ، والإذاعة اللاسلكية

التمثيل

التمثيل دروس شفوية تلقى على العامة والخاصة فى المسارح فتعلق بأذهانهم ويحاكونها فى محادثاتهم ، فإذا كان التمثيل باللغة العربية الفصحى اقتبس منه السامعون أحسن الأساليب وأمتن التراكيب التى تعوضهم عما فاتهم من الدروس فى المدارس ، فقد يكون الطالب منصرفا عن دروس الأدب العربى لما يعتوره من نزق الشباب والتلهى عن الدرس بمحادثة الماجنين من الأصحاب ، ولكن فى حفلات التمثيل يكون كله أذنا صاغية وقلبا واعيا ، فلا تفوته نادرة ولا بادرة إلا اقتنصها ، لما فى دور التمثيل من المناظر الخلابة ، ومايبدو فى أفقها من آنسات فاتنات كالأنجم الزهر تبدو فى أفق السماء ، فإذا نطقت نثرت الدر

من أفواهها فَشنَّفت به الآذان، ورجال عليهم هيبة الملوك وتيجانُهم المرَّصعةُ بأنفس الجواهر، وأزياءُ الوزراء وأرباب الدولة، وأصحاب الصَّولة، فإذا نطقوا تلقت الأسماعُ كلامهم بلا استئذان، ووعت القلوبُ حكَمَهم وإرشاداتِهم بلا مِراء، وبالجملة حدِّث عن فوائد التمثيل باللغة الفصحى ولا حرَج.

ولكن مما يؤسف أن معظم التمثيل فى مصر الآن رجع إلى الوراء بخطى واسعة، بسبب ماطغى عليه من التمثيل الهزلى الذى يرضى العامة أكثر مما يرضى الخاصة، والعامة هى الأكثرية العظمى فى الأمة،فلهذا اضطر أصحابُ المسارح إلى إرضاء شهواتهم وضربوا بالتمثيل الراقى عُرض الحائط لما رأوه من كساد بضاعته والانصراف عنه، فكلما كان التمثيل باللغة الدّارجة، والأساليب العامية الساقطة، والنكت المضحكة، انصرف إليه الناس بكلياتهم وجزئياتهم، وهرعوا إليه على بكرة أبيهم ولو كانوا من الخاصة والأدباء، لانصراف كل إلى إرضاء شهواته، ولو كان فى ذلك القضاء المبرم على لغة بلاده. وقد دب التمثيل الهزلى دبيب الداء فى الجسم حتى صارت الإجادة فى التمثيل تقدر بمعيار البراعة فى الخلاعة والرقاعة، فكم فيه من خليع وخليعة، ورقيع ورقيعة، وقد صارت الألفاظ التى تسترعى الأسماع، ألفاظ الساقطين والساقطات، من أبناء الأزقة والحارات. فإلى ذلك نلفت أنظار أولى الأمر لعلهم يتداركون اللغة والآداب، قبل أن يحيق بهما الدمار والخراب.

الخيالة (السينما)

تمتاز الخيالة عن التمثيل بأمور منها: أن الخيالة تمثل المناظر الطبيعية من جبال ووهاد، وأنهار وأحواش، وغابات وأسود ونمور وغيرها من مختلف الوحوش الأوابد التى لا يمكن إحضارها فى مسارح التمثيل. فضلا عما تمثله من الفجائع كالبواخر فى أثناء غرقها والدور فى أثناء احتراقها وإنقاذ سكانها،

والوقائع الحربية التى تندك فيها الحصون، وتصول فيها الجيوش الجرارة فتقع فيها الأبطال صرعى ما بين قتيل وجريح. وتحليق الطائرات أثناء انقضاضها كالنسور على فرائسها فتدمر القلاع والحصون. وقد تمثل أمورا تعد من المعجزات كالقفز من شاهق العمارات، وتخطى النيران. ومصارعة الأسود، والنمور وغير ذلك من الخيالات التى لا يتصور العقل حدوثها، ولكنهم يصلون إلى تصويرها بصور غير حية يُخيل للناظر أنها أحياء.

فلهذا احتلت الصورُ المتحركةُ المقام الأول بين أصناف الملاهى، وصارت الشركات تصرف على أعداد مناظرها الآلافَ بل عشراتِ الآف من الجنيهات، فتأتى بربح أوفر، وتجوب مشارق الأرض ومغاربها متنقلة من مدينة إلى مدينة، ومن قطر إلى قطر، ومن قارة إلى أخرى، وقد زادها روعة وبهاء ماأدخل عليها من الصور الناطقة التى تمثل المغنين البارزين. والمغنيات البارعات، وطبقات الممثلين والمثلات ومحاوراتهم مما جعل لها المقام الأسمى وصار التمثيل فى الدرجة الثانية بعد ما كان له المقام الأول.

والذى يعنينا مَعْشرالمصريين من الصُّورِ المتحركةِ النّاطقةِ أن تكون أداة لتلقين الأمة اللغة الصحيحة سواء فى الأغانى أو المحاورات أو النصائح والإرشادات، حتى تكون منهلا عذباً تستقى منه اللغةُ الفصحى، فنضيفَ بذلك موردا آخر إلى جانب التمثيل الراقى. ولاشك أننا متى قطعنا شوطا بعيدا فى تهذيب التمثيل والخيالة أدينا إلى اللغة العربية أجل خدمة. وسمونا بها إلى أرقى منزلة، وماذلك على حكومتنا وشعبنا المصرى بعزيز.

ولايفوتنا فى هذا المقام أن نشيد بذكر الروايات السينمائية التى أخرجها الأستاذ محمد عبدالوهاب والآنسة أم كلثوم فقد أديا برواياتهما للأمة المصرية أجل خدمة وأبدعا فى الأغانى والإنشاد. ولكن رجاؤنا إليهما أن تكون جميعُ أغانيهماومحاوراتهما باللغةِ العربيةالصحيحة، حتى تستفيدَ اللغةُ العربيةَ

من روايتهما أجلَّ فائدة، وتكونَ لهما لسانَ صدقٍ فى الآخرين.

وإننا لنقدم جزيل الشكر لشركة مصر السينمائية فقد أخرجت من الروايات ما يَبْهر الأبصار ويسترعى الأسماع وقد أجادت كل الإجادة فى رواية مشاهد الحج ورواية (لاشين) وقدمت للغة العربية نماذج صحيحة من الخطب فى مواقف الحج والمحاورات القيمة بين الملك والوزراء والقواد فى رواية (لاشين) فجزاها الله عن حسن صنيعها هذا أحسن الجزاء.

الصحف والمجلات

الصحف اليومية والمجلات الشهيرة هى الأستاذ الملقن الذى عنه تأخذ العامة والخاصة المفردات والأساليب، فإن خلت مفرداتُها من العجمة والابتذال وأساليبُها من الضعف والركاكة، وانتقت أمتن المقالاتِ أسلوبا، وأرقاها لغة، وأبعدَها عن الحشوِ والتطويل المُمِل، أدت إلى اللغة أجلّ خدمة وذلك أنها تجوب الآفاق، ولا يكاد يخلو منها منزلٌ أو متجرٌ أو مكتبٌ أو معهدٌ، فيقرؤها التاجرُ والزارعُ والصانعُ والطالبُ والطالبةُ، والسيدُ والسيِّدة، والعاملُ والعاملة، فيتلقون منها دروسا علمية وأدبية وأخبارا طريفة، وأحاديث شائعة فضلا عن الحوادث اليومية التى تحدث فى أنحاء المعمورة وأخبار الدول القاصية، والأمم النائية بما تحمله من الرسائل البرقية، وكل هذا ينشر باللغة العربية الصحيحة ماعدا الإعلانات المختلفة فإنها تكون عادة بلغة أصحابها، وهم فى الغالب لايتحرون اللغة الصحيحة، بل يكتبونها بلغة محشوة بالألفاظ العامية والدخيلة.

فعلى أقلام التحرير فى تلك الصحف أن تهذب من لغة هذه الإعلانات وتجعلها مطابقة للغة الفصحى، ولست مبالغا حين أقول: إنى أحصيت نحو عشرين كلمة عامية أو أعجمية فى إعلان واحد. وإذا سألت أصحاب الجرائد أو المجلات عن هذه الأخطاء اعتذروا بأنهم لو كتبوها بالعربية الفصحى

لا تفهمها العامة ، فلا يحصل المقصود منها ، ويرد عليهم بأنهم يمكنهم أن يجمعوا بين الأمرين : الإفادة وتصحيح الألفاظ بأن يكتبوا الكلمة باللغة الصحيحة ويضعوا بعدها اسمها العامى بين قوسين ، ولكن يفوتهم ربح عظيم من تطويل الإعلانات بذكر الأسماء العربية بدون أن يتقاضوا عن الزيادة أجرا وهذا مخالف لادعائهم خدمة الأمة بتهذيب لغتها .

المجلات الهزلية

والداءُ العُضالُ الذى يَنْخَر فى جسم اللغة العربية هو المجلات الهزلية التى تنهشُ الأعراض بألفاظ بذيئة ساقطة استدرارا لكسب القوت ممن يخشون بأسهم . فعلى قلم المطبوعات أن يضرب بيد من حديد على هذه المجلات ، ولا يصرح لأية مجلة أن تصدر بغير العربية الفصحى التى تنطق بالفضائل ولا تنغمس فى حمأة الرذائل من قذف مقذع ، ونكت باردة تمجها الأسماع ، وتنبو عنها الطباع . فإذا سمعت وزارة الداخلية نداءنا حمدنا لها حسن صنيعها ، وقدمنا لها جزيل الشكر على تطهير اللغة من هذه الأدران . والأخلاقِ من هذه الأوضار.

مرافعات المحامين والخطابة

مرافعات المحامين أمام المحاكم الأهلية والشرعية خليط من العربية والعامية ماعدا مرافعات بعض المحامين المثقفين الذين اشتهروا بالبلاغة والبراعة وسلاسة الأسلوب وهم أفراد فى مصر يعدون على الأصابع قد امتازوا بقوة العارضة وحضور البديهة مع بلاغة ساحرة . وفصاحة نادرة . وأمامهم فى ذلك الزعيم الأكبر ، الخالد الذكر سعد زغلول باشا ، فقد عرفه الناس المحامى المدره ، والخطيب المفوه ، الذى إذا اعتلى المنبر أصغى إليه الكون . وإذا وقف أمام منصة القضاء سحر الألباب بفيض من البلاغة وسيل من الفصاحة ، فرحمه الله رحمة واسعة .

وللخطباء الآن فى مصر وغيرها من الأقطار الشرقية شأن عظيم ، وقد نبغ من الخطباء فى مصر أفذاذ نجباء ، سارت بخطبهم الركبان ، فى كل مكان . ونخص منهم بالذكر المرحوم مصطفى كامل باشا رأسَ النهضةِ المصرية ، وخادم القضيةِ الوطنية . فقد جابت خطبُهُ الرنّانةُ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها ، وقام يدافع عن القضيةِ المصرية بهمة لا تعرف الكلال . وعزيمة لا تعرف الملالة ، حتى قضى نحبه فى ريعان الشباب ، فبكته الأمة المصرية بدموع سخينة وخلدت له جميل الذكر وحسن الأحدوثة .

الاذاعة اللاسلكية

للإذاعة اللاسلكية فى مصر وغيرها من الأقطار المتمدينة شأن يذكر فى نشر الأغانى والأخبار وإذاعة المحاضرات والخطب الرائعة ، فهى لسان ناطق ، وخطيب مصقع ، ومحاضر بارع ، ومغن ممتع ، وموسيقى مطرب ، ومعلم ماهر ، ورجاؤنا الحار إلى القائمين بها أن تتحرى الأغانى المهذَّبة ، وأن يكونَ المذيعُ حريصا على لغته من أن يشوبها لحن أو تحريف ، فهو المدرس الذى يلقى دروسه على الملايين من أبناء هذه اللغة ، فهفواته تعد عليه . وعلى كل خطيب أو محاضر يقف أمام المذياع أن ينتقى أحسن الأساليب ، وأمتن التراكيب ، حتى يستوقف الأسماع ويأسر القلوب .

المبحث السادس

فى تسهيل القراءة والكتابة باختزال الشكل

صعوبة اللغة العربية على المتعربين كالمصريين وجميع الشرقيين ناشئة من صعوبة ضبط أواخر الكلم بالوسيلتين المعهودتين وهما القواعد النحوية والشكل .

أما الوسيلة الأولى وهى النحو فلاغنى للمتعربين عنها مادام التلقين الصحيح غير ميسور الآن .

ولكن دلت التجارب على أن الإفراط فى تعليم القواعد، وحشو الأذهان بالكثير منها بدون مَرانة على مزاولة الأساليب الصححية ، والاطلاع على نخبةٍ صالحةٍ من النظم والنثر مع الضبطِ والفهم، لا يُكسِبُ الطالبَ صحة بيانٍ ، ولا قوةَ خطابة ، ولا صحيح إبانة عما يختلج فى ذهنه من المعانى ، ولذلك عَدَلت وزارة المعارف عن ارهاق الطُّلاب بشتى القواعد ، وعَمَدت إلى تثقيفِ الطلبة بكثرةِ المطالعة . والتدريب على أصح الأساليب وأروعها ، باحتذاء المختارات من عيون النثر والشعر للفحول من الكتاب والشعراء المتقدمين والمتأخرين .

وأما الوسيلة الثانية وهى الشكل فكثرته توجب ارتباك القارىء لأنه يقع فوق الحروف لا بعدها فهو حروف مختصرة قد لا تقع موقعها لضيق المسافات فيضطرب القارىء ويقع فى الخطأ . أما فى اللغات الأوربية فيقوم مقام الشكل حروف غير مختصرة تقع بعد الحروف الأصلية فلا يصعب على القارىء النطق بها . فمثلا كِتَابٌ بالتنوين مكون فى اللغة العربية من أربعة أحرف وأربع حركات وهى الكسرة والفتحة والضمتان . ولكن إذا كتبته بالإنكليزية أو الفرنسية تكون من سبعة أحرف فى الإنكليزية هكذا Klitabon ومن تسعة أحرف فى الفرنسية هكذا Klitabcnne .

فاللغة العربية أخصر اللغات وضعا ، لأن الكلمة فيها تشغل نصف المسافة التى تشغلها الكلمة الإنكليزية أو الفرنسية . لكن النطق بها أصعب فى العربية لوقوع الشكل فوق الحروف لا بعدها كما علمت .

وقد ارتأى بعض الباحثين أن نتبع طريق الأوربيين فى الكتابة بأن نضع بدل الشكل حروفا بعد الكلمات فتكتب محمد مثلا هكذا (موحاممادن)

ولكن قامت فى وجههم صعوبة وهى عدمُ التمييزِ بين حرفِ المدِّ والحركات لأن حرف المدِّ — وهى الألفُ والواوُ والياءُ — حروفٌ أصلية ، وهى خلافُ الضمةِ والفتحةِ والكسرةِ فى النطق . وفى الحروفِ الفرنجيةِ حروفٌ مركبةٌ أو مفردةٌ تدل على حروف المدّ وحروف تدل على الحركات عندنا . au المركب من حرفين فى الفرنسية يمثل واو المد عندنا ، وحرف o يمثل الضمة عندنا بدون إشباع ، فما الذى يميز لنا الضمة التى على الياء فى يكتب عن الواو فى لم يكتبُوا إذا كتبنا كلا منهما هكذا (ى‌ا‌ل‌ك‌ت‌و‌ب‌و) .

فقالوا : يمكننا تلافى هذا الاشتباه بوضع حروف صغيرة للحركات تميزها عن حروف المد الأصلية فرد عليهم ذوو الرأىِ بأن هذا هوالشكلُ بعينه ، والذى أحدثتموه هو وضعُه بعد الحروف لافوقها . ولكن فاتكم صعوبة أخرى مُوجبة للاشتباه والارتباك ، فضلا عما نخسرُه من الاختصار بضيق المسافات ، وهى أن الكاتب عند كتابة الكلمة مشتبكة الحروف لا يمكنه أن يضع مقدارا معينا للحروف الدالة على الحركات والحروف الأصلية . فهل يمسك الكاتب قلمين ثخين ودقيق فيضع الحروف الأصلية بالأول والحروف الدالة على الحركات بالثانى ؟ فهذا الاقتراح مقضى عليه بالفشل ، وإن شئت فقل محكومٌ عليه بالموت قبل أن يولد . . .

ولما طال الزمن بعد أن احتدم الجدل بدون نتيجة بين المصلحين من أقطاب الأدباء فى مصر ، فكّر صاحبُ المعالى محمد بهى الدين بركات باشا رئيس مجلس النواب السابق فى عهد وزارته الثانية للمعارف فى السنة الماضية سنة ٣٨ فى طريقة لاختزال الشكل بدون مساس بجوهر الحروف ، واستفزّ همم الأدباءِ إلى هذا الموضوع على لسان المذياع فانشاتُ محاضرة فى اختزال الشكل وعرضتها على إخوانِنا المفتشين وأساتذةِ دارِ العلوم ، فنالت رضاءهم فطبعتها وعرضتها على معاليه ، فنالتِ منه القبول ، وعنى المفتشان الأولان فى

وزارة المعارف بهذا البحث وأصدرا منشورا به على الطريقة التى اتبعتها وهى:

(١) حذف الفتحات من جميع الحروف واعتبار كل حرف لم يشكل مفتوحا لأن الفتحة أكثر دورانا فى الكلام حتى أنى أحصيتها مع بقية الشكل فى جميع أوزان الفعل فوجدتها تبلغ الثلثين وباقى الشكل يبلغ الثلث وقد وجدت هذه النسبة أيضا فى حروف المعانى وكثير من النظم والنثر وساعدنى على ذلك قول صاحب القاموس فى مقدمته : وكل كلمته عرّيتها عن الضبط فهى بالفتح .

(٢) حذف الضمة والفتحة والكسرة قبل حروف المد وإثبات الفتحة إذا كان ماقبل الواو مفتوحا نحو بَوْر [١] منعاً للاشتباه بكلمة بُور على أن إسكان الواو يمنع من هذا الاشتباه .

(٣) حذف الفتحة من الهمزة التى ترسم ألفا اكتفاء بوضعها فوق الألف وحذف الكسرة منها إذا كانت مكسورة تحت الألف اكتفاء بوضعها تحت الألف نحو أخذ وسأل وإجابة .

(٤) حذف الضمة من الهمزة المرسومة على واو ، والكسرة من الهمزة التى ترسم على ياء اكتفاء بصورتها نحو يؤمُّ . ويَئس .

(٥) حذف السكون والحركات من أواخر الجمل اكتفاء بقاعدة (لا يُوقفُ على متحرك) .

وقد نُشرت المحاضرة التى أشرت إليها فى العدد الثانى من صحيفة دار العلوم لهذه السنة فليرجع إليها من أراد التفصيل ، والله الهادى إلى أقوم سبيل .

محمد على الدسوقى

---

(١) البور بالفتح الارض قبل أن تصلح الزرع أو التى تجم سنة لتزرع من قابل كما فى القاموس ، والبور بالضم مصدر بار بمعنى هلك كما فى المصباح .

فنون الأدب

للأستاذ عبد الحميد حسن

(٢)[1]

غايات الأدب

هل نحن فى حاجة إلى هذه الألوان التى يعرضها الأدباء والشعراء والكتاب من نثر ونظم فى المدح والاستعطاف والفخر والحماسة والوصف ونحو ذلك من فنون القول التى يسرد لها علماء الأدب النماذج المختلفة ؟ وماذا يبغى الأدباء من وراء مايقولون أو يسطرون ؟ أهم يقصدون إلى الترفيه عن أنفسهم وإرضاء ميول ونزعات فيهم وتلبية نداء قلبى أوحافز باطنى أوظاهرى ؟ أم هم يقصدون إلى إمتاع القارىء وتسليته بعرض الطرائف المعنوية أو بإرسال الأساليب البيانية والعبارات التى تنطوى على فنون من البلاغة ومظاهر من رائع التعبير وجيده ؟ وهل الغاية التى يرمون إليها ذات صلة بالحياة أو بالفطرة الإنسانية وأتجاهاتها ؟ وإذا لم تكن كذلك فى بعض الأحوال أو أغلبها فماذا يجب أن تكون الغاية ؟

هذا هو الذى نريد أن نعرض له لنعرف غاية الأدب وصلته بالحياة وبالنفس . وإن تحديد الغاية من الأدب يرسم لنا النهج واضحا ، ويرشدنا حين نتصدى للنقد الأدبى وللحكم على الأدب وفنونه وعلى الأدباء ومكانتهم وأثرهم.

❊❊❊

---

(١) راجع المقال الاول في العدد الثاني من السنة السادسة.

أشرنا فى كلمتنا السابقة إلى أن الأدب ينبع من النفس ومظاهرها ومن البيئة بنوعيها الطبيعية والاجتماعية ، ولنبسط هذا بعض البسط لعلنا نصل إلى ارتباط هذا الانتاج الأدبى بالحياة فيهدينا ذلك إلى أن نعرف الغاية التى اتجه إليها الأدب أو التى يجب أن يتجه إليها :

النفس الإنسانية ميدان تسرح فيه الخواطر وتبرز الفكر ، وتتموج أضواء من المشاعر وأشعة من الحقائق ، وتجول آمال يهيم الإنسان فى شعابها ، وآلام هى مبعث الشكوى والحنين ، وفى البيئة التى تحيط بالإنسان من المعانى ما يسبح ساطعا يرتقب صفحة ينعكس عليها ، وما يهيم كالطائر يبحث عن وكر أو عش يستقر فيه ليفرخ ، وما يكمن هادئا وادعا ينتظر من يهدى الناس إليه ليزدادوا بالتعرف إليه استمتاعا بمعانى الحياة وطرائفها ، ولتزداد حياتهم نشاطا وجدة ، وفى المظاهر التى خلقها الله من رائع المعانى ما فيه غذاء للنفوس وحافز للمواهب وموقظ للهمم ، وفيها من جليل الحقائق ما كان له أعظم الشأن فى بنى الإنسان وماضيهم وحاضرهم ، ولا يزال فى ثنايا هذا الكون من المعانى ما فيه بلاغ للمفكرين .

هذا الينبوع المتدفق من المعانى التى تسبح فى النفس وتزخر بها الحياة هو الذخر الذى تعيش به الإنسانية وتسير فى ضوئه ، وهو الخيوط التى تنسج منها حياتنا ، وهو الذى يمتاز به الإنسان عن غيره من الكائنات ، وعلى قدر ما تنال نفسه من هذه المعانى تكون حياته سعة وضيقا وتموجا وركودا .

وهذه المعانى منها ما ينبع من دخيلة النفس ، ومنها ما يهبط عليها وحيه من البيئة ثم يصهر أو ينعكس أو يترعرع ويثمر ويتجلى للسامع أو الرائى عن طريق من طرق التعبير . وللنفس الإنسانية فى جميع هذه الأحوال شأن فى هذه المعانى ، فعنها تصدر ومنها تنبع ، وعن طريقها تملى الطبيعة وتوحى بالجديد ، ثم يصوغها الإنسان بطريقة من الطرق التى ألفها والتى جرت بها أساليب

الحياة كالتصوير والرسم والنقش والحفر والموسيقى واللغة ، وكلها وسائل فنية للتعبير ، فاذا صيغت هذه المعانى فى صورة من أساليب اللغة فذلك هو الأدب.

فالأدب إذن ينبع من النفس ويعبر عن نزعاتها ، ويصور مايجول فى نواحيها وماينعكس على صفحاتها مما تمر به أو يمر بها من معانى الحياة وألوانها . ومعلوم أن للنفس مظاهر ثلاثة وهى الفكر والوجدان والإرادة ، ولكل منها جولات فى شتى نواحى الحياة ومقاصدها تتجلى فيها ألوان من الجمال وفنون من المعانى ودوافع إلى جليل الأعمال ونبيلها ، وتوجيه إلى أقوم السبل فى الفكر والعمل، ونقد يرسم خير الطرق للإنسان ، وألوان من الجد والهزل والمرح والسرور والألم ، وحوادث عظام تهز قلب الإنسانية وتغير وجهتها ، إلى غير ذلك من الخواطر ومناحى الفكر وبواعث الخير ووجوه الجمال .

والأدب هو اللسان الناطق بكل هذا . ولعله مما لايحتمل الشك أن الحياة لاتكون يانعة الجنى زاهرة مخضرة إذا خلت من كل هذه المعانى والألوان النفسية ، أو بعبارة أخرى إذا خلت من الأدب ، إذن لخلت من قوة تعمر بها القلوب ومن ضوء يشع فى أرجاء المجتمع ، فالأدب هو باعث كل هذا أو هو الذى يصور لنا معانى الحياة وخلجات النفس .

نستطيع بعد كل هذا أن نقول إن غايات الأدب تلازم غايات الحياة فى نبيل مقاصدها وجليل معانيها ، وتتصل بغايات الإنسان فى تفكيره وعمله ومشاعره . فالأدب ملازم للحياة ولا غنى لها عنه ، ولاغنى له عنها . فالحياة تستضىء بالأدب وتلجأ إليه لإظهار الكامن من معانيها والاشادة بمظاهر جمالها ونواحى الخير فيها ، والأدب لايتجلى إلا فى معانى الحياة وفيما تنطوى عليه القلوب ، فالصلة وثيقة بين الأدب والحياة والفطرة الإنسانية ، والرابطة متينة بين غايات الأدب وغايات الحياة .

ولنعد إلى ماأشرنا إليه من المظاهر الثلاثة للشعور لنتعرف غايتها وصلة

هذه الغاية بالغاية من الأدب ومن الحياة :

إن غاية الفكر هى تفهم مافى هذا العالم تفهما ناصعا سليما من الانحراف بعيدا عن الاعوجاج مرتكزا على الصواب والحق . ومجال الوجدان هو النواحى الحساسة من الحياة ومظاهر الكون ومافيهامما يبعث الإعجاب والسرور أو الاكتئاب والألم ، ومايثير الانفعال ويوقظ العواطف . وغايته هى الاهتداء إلى نواحى الروعة والجمال فى الكون وفى تصرفات الإنسان وخلقه وسلوكه فما كان من هذا منسجما جميلا بعث الإعجاب والارتياح ، وما نبا عن ذلك أثار اشمئزازا وألما . وميدان الإرادة هى الأعمال التى يرغب الإنسان فى عظائمها ويسعى لتحقيقها ، ويأنف من دنيها وحقيرها ويعمل على اجتنابها ، وغايته فى ذلك إذا حسنت طويته وصفت سريرته إنما هى الخير .

فالغايات النبيلة والمثل العليا للانسانية هى الحق والخير والجمال ، وهى غايات تسمو بالحياة ، وترسم لها أقوم السبل ، وإذا اتجه إليها الإنسان فقد سلك طريقا واضح القصد نبيلا . وإذا كان الأدب إنما ينبع من الحياة ومن النفس البشرية ، فإن الميادين التى ينبغى أن يجول فيها إنما هى ميادين هذه المثل العليا للحق والخير والجمال . والأديب هو أحد القادة الذين يحملون لواء التوجيه والإرشاد إلى هذه المقاصد العالية . وليس هو وحده الذى يقود الزمام، فهناك رجال الفنون الأخرى كالموسيقى والتصوير ولهم فى هذا الميدان جولة وأثر فى توجيه الإنسانية فى بعض النواحى ، وهناك من يعملون لهذه الغايات من طرق أخرى نظرية وعملية ، ولكن الأدب أو أدب اللغة يسير فى هذا الميدان وعدته اللسان أو القلم، وغايته أن يحفز إلى العمل ويصور محاسن الحياة فيرغب فيها العاملون ، ويظهر مساوئها للتنفير منها وممن يتصفون بها ، ويسن خير الخلال لتتجلى لمن ينشدون الخير ويبغون المكارم . ولعل أبا تمام قصد شيئا من هذا حين قال :

ولولا خلال سنها الشعر مادرى بغاة الندى من أين تؤتى المكارم

***

هذه هي الغايات التي تنشدها الإنسانية وتأمل من الأدب أن يعاونها على تحقيقها والتنويه بها ، وإن الأدباء لمن خير الأعوان في الاضطلاع بهذا إذا سلمت طويتهم وسمت مقاصدهم، أما إذا انحرفوا وهبطت نفوسهم فإنهم يصبحون من أعوان الغواية وعوامل الشر والقيادة النابية عن الجادة ، ولعل فريقا من هؤلاء هم الذين أشارت إليهم الآية الكريمة في قوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون » .

وهذه الغايات الثلاث وهي الحق والخير والجمال قد تكون غير متعادلة في قسطها من اتجاه الأدب وفنونه وفي نصيبها من جهود الأدباء ، فمن أنواع الأدب مايبرز فيه الجمال والخيال ، ولعل الشعر أوفى حظا في هذا من النثر ، ومنها ماتتجلى فيه دواعي الخير والحث على جليل الأعمال ، ومنها ماتصطخب فيه دوافع الإقدام وتلتحم عوامل الشجاعة ظافرة ، أو تبدو مظاهر الرهبة والإحجام متعثرة تتوارى من سوء مايحيق بها أو تفر من ميدان الكفاح والدفاع .

وليس غريبا أن تختلف النفوس والبيئات في حظها من هذه الغايات بل إن الاختلاف هو السنة التي لاتبديل لها ، فالمعلوم أن المظاهر الثلاثة للشعور وهي الفكر والوجدان والإرادة - وهي التي تتجه إلى الغايات التي نشير إليها - ليست متوازنة في جميع الأفراد ، ولا تنمو بقدر واحد في جميع البيئات ، فمن الأشخاص من غلبت عليهم ناحية منها فكان مثلهم الأعلى مركزا في فكر يرمي إلى الحق ، أو في إرادة تميل إلى الخير ، أو في وجدان يبحث عن الجمال في جميع مظاهره ، ومنهم من كان حظهم في هذه النواحي جميعها ضئيلا أو منحرفا عن الطريق القويم ، ومن البيئات مايسمو بأحد هذه المظاهر أو

يهبط بها ، وهذا يصل بنا إلى أنواع من الأدباء يختلفون فى اتجاههم وفى مثلهم العليا وفى حظهم من الإجادة ، وإلى فنون من الأدب تختلف قوة وضعفا ، ولهذه النتيجة شأن فى المفاضلة بين فنون الأدب وفى الموازنة بين الأدباء . ولها أيضا صلة بمعايير الأدب ومقاييسه ، وسنعرض لهذا فى فرصة أخرى .

وحسبنا الآن أن نصل إلى النتيجة التى قصدنا إليها وهى أن الأدب يجب أن تكون له غاية نبيلة ، وأن هذه الغاية إنما تنبع من الغايات النبيلة للإنسان ومن المثل العليا للحياة .

فاذا ارتضينا هذه الغايات التى أشرنا إليها استطعنا أن نسير فى ضوئها ونتخذ منها ميزانا للنقد ومعيارا للأدب بعد أن نتناولها بشىء من الإيضاح .

عبد الحميد حسن

المطربون والمطربات
هم الطابور الخامس فى مصر

للأستاذ سيد قطب

يغرد الطير حين تمتلىء حوصلته بالحب والماء، فيحس الشبع والرى، ويخلص من مطالب الضرورة، ويسلم من المرض، ويطمئن من الأذى، فيحلو له الغناء، لأنه فى أحسن أوقاته وأروح لحظاته .

نعم إن تغريد الطير قد يكون نداء للأنثى، وتعبيرا عن فورة الجنس ولكن هذا لايخلو من دلالة تؤيد مانرمى إليه، فالطير لا يطلب أنثاه حتى يكون جسمه سليما من العلة المعوقة، بل لا يطلبها قبل أن تكون فى جسمه فضلة من النشاط فائضة عن حاجة للقفز والطيران . فالغناء فى هذه الحالة هو كذلك دليل الصحة والقوة، لادليل الضعف والمرض .

ذاك فى أمة الطير وكذلك فى أمة الإنسان، فهو لا يركن إلى الغناء وفى جسمه أو نفسه عائق من العوائق، وركونه للغناء معناه أنه أشبع ضروراته كلها وتطلع إلى آفاق أسمى من قيود البدن فيكون حينئذ فى خير لحظاته وأنشط خطراته .

وقد يكون الغناء فى الإنسان كذلك طلبا للأنثى، أو تعبيرا عن الحب الذى يسمو عن مطالب الجنس ويتجاوزها . فيكون فى الحالة الأولى دليل الصحة البدنية، ويكون فى الحالة الثانية دليل الصحة البدنية والروحية جميعا . ذلك أن الإنسان لا يطلب الأنثى ولا يحب، حتى يصح جسمه وتصح روحه، وحتى تكون لديه بعد هذا وذلك فضلة من النشاط الفائض عن مطالب الضرورة والحاجة يتطلب إنسانا آخر يكافئه .

فهو – والحالة هذه – فى أصح حالاته وأملئها بالحيوية والنشاط والتطلع ، وليس فى حالة ضعف وانزواء .

بيد أننا ابتلينا فى مصر بصورة للحب لا تتفق مع صورته فى الطبيعة سواء أكان نداء للبدن أم هتافا للروح ، فإذا هو أولا : تعبير عن أحط النزعات الحيوانية فى الإنسان ، وإذا هو ثانيا : تصوير لهذه النزعات المنحطة فى حالة ضعفها ومرضها وانحلالها ، بحيث لا يرتقى للدلالة حتى على السلامة الحيوانية ، التى يتمتع بها الطير والحيوان .

وإذا التعبير عن هذا الحب حشرجة وشهيق ودموع ، وإذا التغنى به زفرات وآهات وأنين ، وإذا نحن من هذا الغناء فى مستشفى كبير تتردد فيه التأوهات ، وصرعاه ما يكادون يفيقون من صرعة الداء الدفين .

وإنك لتحرك مشير المذياع إلى كل محطات العالم اللاسلكية فتسمع غناء وموسيقى تفهمها أو لا تفهمها ، وتستريح إليهما أو لا تستريح ، ولكنك تحس فيهما الصحة والسلامة . صحة البدن الحيوانية ، أو صحة الروح الإنسانية . حتى إذا هبطت إلى مصر سمعت حشرجات المحتضر ، وتأوهات الموجع ، وتوسلات الذليل .

ولقد تكون صيحة الألم فى بعض الحالات أدل على سلامة الفطرة وصدق الإحساس من نبرة الفرح ، ونغمة الراحة ، ولكنك فى مصر لا تستمع إلى صيحة واحدة من صيحات الألم الصحيح فى ذلك الغناء المريض . إنما هو تصنع الألم والتظاهر بالوجع . وإذا كان الألم الحقيقى محتملا – مع المضاضة – لأنه صادق ، فالألم المصنوع أبغض شىء إلى النفوس .

***

وبعد فإنك تحار فى تحديد التبعة فى هذا الهبوط الذى نعانيه فى الغناء والموسيقى : أتقع على عاتق المؤلف أو الملحن أم المغنى . والواقع أن الجميع

مسئولون ، لأنهم — فى الغالب — يجهلون مهمتهم ، ولا تهيء لهم ثقافتهم قيادة شعور الشعب ، وهى مهمة روحية واجتماعية لا يقوم بها إلا الأكفاء.

فغالبية المؤلفين — حتى اليوم — من طبقة غير طبقة الشعراء الممتازين وهؤلاء لا يعرفون من العواطف الإنسانية إلا أسماءها وظواهرها وقلما تخالج نفوسهم هذه العواطف التى يتكلفون التعبير عنها . وهذا وحده يكفى لسقوط الأغنية من ناحية التأليف . ولكن هؤلاء هم المقدمون عند المطربين والمطربات لقربهم من مستواهم الثقافى والنفسى ، وسرعة التفاهم بينهم لهذا السبب !

وقلما يطرق هؤلاء السادة إلا الغزل — والغزل على طريقتهم حشرجة المحتضر ، وتأوهات المريض ، واستعطاف الذليل ولن يكون مرة واحدة ، فرحة الظافر ، ولا متعة الواجد ، ولا رجاء الواثق ، ولا ثورة الغاضب ، ولا فورة فى الجسم أو الضمير .

فإذا تجاوزوه إلى الأغانى الحماسية ، تحت إلحاح النقاد وضغط الحوادث ، جاءت أغانيهم جافة كأنها رجم الحجارة ، لأنهم لا يستطيعون أن يحسوا فورة الشعور فى فن من الفنون .

وطبقة الملحنين والموسيقيين عندنا لا ترتفع كثيرا عن طبقة المؤلفين المحترفين للأغانى والأناشيد ، ومرجع هذا إلى التسامح العجيب تجاه الملحن ، الذى لا نشترط فيه ثقافة عقلية ولا تجارب نفسية وحسب أى مخلوق كائنا من كان أن يتعلم السلم الموسيقى والمقامات والضروب ، وقليلا أو كثيرا من « الهرمونى » ليكون ملحنا أو موسيقيا كبتهوفن وموزارت !

ولست أدرى لم لا نسمى كل من درس العروض شاعرا ، وأدوات الملحن فى مصر لا تزيد على أدوات العروضى شيئا .

ومن هنا كان عمل الملحن هو التوفيق بين النغمات والأوزان ، يستوى عنده لحن الحزن ولحن الفرح إذا اتحدا فى العروض !

وأعجب مانسمع به للملحن ذلك الشيء الذى يقال له « تقاسيم » فماذا تعنى هذه التقاسيم التى لاتعبر عن معنى خاص سوى التنغيم !

تصور شاعرا يجلس خمس دقائق مثلا ليسمعك على التوالى : « مستفعلن فعل مستفعل فعل » أو « فعول مفاعلين فعول مفاعل » ! فهذا فى عالم الشعر يقابل « التقاسيم » فى عالم الموسيقى . كلاهما أوزان لامعنى لها ولا حياة .

ويخيل إلى أن علة العلل فى فساد الغناء هو التلحين ، فقد أفلتت بعض المقطوعات فى تأليفها من عيوب الضعف والتصنع مثل « نشيد الجهاد » و« أغنية الجندول » ولكن الأولى خرجت من يد الملحن نواح مأتم مختلط بالولولة والعويل . والثانية خرجت « مائعة » لاقوام لها، ورجراجة لاتستطيع إمساكها .

ولقد أفسد الملحنون فى مصر فطرة بعض المطربين والمطربات بتلحينهم المتعارف « المائع » : فطربة مثل « اسمهان » كانت لها ميزة التعبير عن اللهفة تحس فيها نداء الفطرة الحيوانية السليمة ، وهى ميزة نضطر أن نعتز بها فى هذا الفقر المدقع مادامت سلامة الفطرة الإنسانية مطلبا خياليا فى عالم الغناء المصرى ولكن التلحين الرخى ، والنغمات المتصنعة ذهبت أو كادت بهذه الميزة الفريدة وأرجعت المطربة الحية المتفززة إلى المستشفى الكبير الذى أقامه الملحنون !

ومطربة مثل « رئيسة عفيفى » تجيد الغناء الشعبى ، وفى روحها بساطة الجمهور وخفته ، أغراها الملحنون بترك النغمات التى خلقت لها ، فذهبت إلى المستشفى مع الأسف بعد أغنيتين اثنتين !

أما المغنى فهو ضحية التأليف والتلحين تارة ، وضحية الفطرة الممسوخة ، والشخصية « المائعة » تارة ، وهو شريك أصيل للمؤلف والملحن فى الهبوط بالغناء إلى هذا الدرك السحيق .

***

فإذا فرغنا من التأليف والتلحين والتغنى، لم نفرغ من الأسباب الأصيلة لتدهور الغناء، فوراء هذا جميعه «ديموس» العظيم ووراءه الجمهور الذى يستروح هذا الغناء ويحبه ويردده، فيدل بهذا على عظم الكارثة، ويشير إلى أن مكمن الداء أبعد من السطح المعروف، وأنه ناخر واغل فى جسم الأمة إلى أبعد الحدود.

ولقد جلست إلى المذياع قريبا أستمع إلى «مايطلبه المستمعون» فهالنى أن تكون كثرة مايطلبون من أغانى الأفلام، وهى أمرض الأغانى تأليفا وتلحينا وأداء.

هالنى هذا. فليست الكارثة أن يفسد ذوق المؤلف والملحن والمغنى، ولكن الكارثة الحقيقية هى أن يفسد ذوق السامع لأنه هو الذى يملى لهؤلاء جميعا فى التخنث الذميم. ولو صح ذوق الجمهور لأرغمهم جميعا على الصحة، أو لنبذهم وترك الفرصة سانحة لغيرهم من الأصحاء يظهرون.

ولقد هدتنى الملاحظة إلى شىء آخر، وهو قوة الحاسة التجارية عند مطربينا ومطرباتنا، فقد كانت تلبيتهم تامة للنوازع الهابطة فى النفس البشرية، لأن هذه النوازع أشد وأقوى فى الجماهير، فالربح من ورائها أكثر وأضمن، ولم يحاولوا مرة واحدة تلبية النوازع العالية لأنها أضعف فى نفوس الجماهير، فالربح ليس حينئذ بمضمون!

***

وأخيرا هانحن أولاء أمام الخطر فى حاجة إلى الصحة والسلامة فى النفوس وهذه الأغانى أخطر من «الطابور الخامس» فلا بد من علاج سريع مضمون

وخير طريقة للعلاج فى نظرى، تنظيم حملة قاسية واسعة النطاق لتهجين هذه الأغانى التى تسرى كالسم فى كيان الأمة وتسفيه الذوق السقيم الذى يمليها أو يتقبلها. وهذا الهدم يخلق فى النفوس قوة البناء فى التأليف والتلحين والغناء ويطهر الجو من الجراثيم التى تقتل الصحة والسلامة فى فطرة الجميع.

حلوان سيد قطب

المـــــروءة المقنعة

للأستاذ محمود غنيم

تعريف : المروءة المقنعة مسرحية تاريخية شعرية تقع فى أربعة فصول حدثت وقائعها فى أرض الجزيرة بالعراق أيام سليمان بن عبد الملك . تتلخص فى أن ثريا من سراة الرقة (خزيمة بن بشر) أملق بعد غنى حتى انفض من حوله أصحابه فترامى خبره إلى والى الجزيرة (عكرمة الفياض) فذهب إليه متنكرا ووصله بصلة كبيرة دون أن يعرفه نفسه . ثم تشاء المقادير أن يعزل الخليفة عكرمة عن ولاية الجزيرة ويوليها خزيمة فيحاسب الثانى الأول فيجد عنده فضولا لايستطيع أداءها فيزج به فى السجن غير عالم أنه صاحب اليد الطولى عليه ثم يتجلى الأمر بعد ذلك فيبادر إلى إطلاق سراحه معتذرا كما يجازيه الخليفة — وقد كان ترامى إليه خبره — أحسن جزاء .

ويلاحظ : « أولا » أننا جردنا الرواية من العنصر النسائى حتى يتسنى لطلبة المدارس الثانوية تمثيلها « ثانيا » أننا لم نتصرف فى الحوادث التاريخية بزيادة أو نقص أو تغيير إلا بالمقدار الذى اضطررنا إليه مما يساعد على الغرض المنشود ولايمس جوهر التاريخ .

أشخاص الرواية :

(١) عكرمة الفياض	والى الجزيرة من قبل سليمان
(٢) خزيمة بن بشر	من سراة الرقة ووالى الجزيرة بعد عزل عكرمة
(٣) سليمان بن عبد الملك	أمير المؤمنين
(٤) أسامة	شخصية موضوعة ابن عكرمة
(٥) عمـــرو	» » مولى خزيمة
(٦) قيس	» » » عكرمة
(٧) سعد وسعيد	شخصيتان موضوعتان بطانة عكرمة

(٨) نكرات مسرحية من حشم وخدم وشعراء ومغنين .... الخ

الفصل الأول

المنظر الأول

يرفع الستار عن بهو فى منزل خزيمة بن بشر بالرقة فى أرض العراق يشتمل على أثاث عتيق بال خزيمة نائم فى غرفة متصلة بالبهو . الوقت قبيل الغروب . ليس بالبهو إلا الغلام عمرو

عمرو ـ يناجى نفسه: ويحى وويح سيدى أزرى به ضيق اليد

أطال من رقاده لكنه لم يرقد
كيف ينام وهو طا وى البطن لم يُزوَّد
قد لزم البيت لزو م راهب لمعبد
ولم يكن عن الندى ولا الوغى بمُقعْدُ
ياقصر كنت ملجأ رحبا لكل مجتد
يؤمه العافى فيقـ تات به ويرتدى
لقد هوى الفقر بعا لى ركنك المشيد
لو لاح لى الفقر بوجـ ـه الكئيب الأسود
أذن أطحت رأسه بصارم مهند
كى يستريح الناس من هذا الشقاء السرمدى
ما أصعب البؤس على الـ ـحر الكريم المحتد
ماأقبح الأملاق بعـ ـد العز بعد السؤدُد
ويحى وويح سيدى أزرى به ضيق اليد

صوت من مخدع خزيمة : ياعمرو

عمرو لبيك يامولاى

خزيمة : خذ بيدى ويحى صروف الليالى أوهنت جلدى

عمرو ـ وهو ينهضه :

سلمت ياسيدى من كل نازلة أفديك بالنفس قبل الأهل والولد

خزيمة ـ وهو داخل المسرح :

لم يبق لى غير عمرو هو الجدير بشكرى
باق على العهد واف فى حال يسر وعسر
فوجهه وجه عبد وفعله فعل حر
كم من صديق وفى قد صد عنى لفقرى

عمرو : مولاى أبصرت عمارا وخارجة وخالدا ظهر هذا اليوم غادينا
مروا على بابنا مرا فما عطفوا مابالهم حين مروا لايعوجونا ؟

خزيمة : ياعمرو معذرة للقوم أن صدفوا لاتنس أنى لهم أصبحت مديونا
لاتنس أنهمو ياعمرو قد بسطوا بالمال أيديهم فى شدتى حينا
واسوا أخاهم فلما استيئسوا اخلصوا وذاك جهد الأخلاء الوفيّينا

عمرو : مولاى إنك فى ضيق ومتربة لكن صحبك فى النعماء يلهونا
دع هؤلاء وخذ من غيرهم فهمو ملء العراق كثير لايعدونا
أُمْدُدْ اليهم يدا كم فاض نائلها كم ياخزيمة واسيت المساكينا

خزيمة ـ منفعلا : حاشا يمدابن بشر للسؤال يدا ولو تناول زقوما وغسلينا

عمرو ـ فى تبا له

عفوا خزيمة اشفاقى عليك محا رشدى فأصبحت يامولاى مجنونا

عمرو ـ بعد برهة :

مولاى إن كنت لاترضى بذاك إذن بعنى بعشرين فلسا أو ثلاثينا

خزيمة ـ منفعلا :

ياعمرو ويحك هل أصبحت تمقتنا فى الضيق هل أنت أيضا زاهد فينا

عمرو ـ فى تبا له :

كلا لعمرك . لم أقصد . يلوح على ملامحى أنى مازلت مجنونا

خزيمة : ياعمرو لاتذكر لنا الجنونا هون عليك الأمر كى يهونا

ماذا لديك اليوم من عشاء لى مدة ما اقتت غير الماء

عمرو : أعددت زادا طيبا شهيا هيا بنا إلى العشاء هيا

خزيمة : وما الذى أعددته ياعمرو ؟

عمرو : خبز وزيت دسم وتمر

خزيمة : من أين يعمرو اشتريت الزيتا ؟ والتمر من أين به أتيتا ؟

عمرو : بعت السراجَ سيدى بدرهم وقلت يكفينا ضياء الأنجم

ثم اشتريت ذلك الطعاما ألست عبدا حاذقا هماما

يهمان بتناول الطعام فيسمع طرق على الباب

خزيمة : طارق بالباب

عمرو ـ وهو يفتح : منذا يطرقُ

السائل : أنا مستجدٍ فقير مملقُ

جئتُ أستجدى ابن بشر درهما أنه بحر العطايا

عمرو : تُرْزَقُ

السائل : لاتكن لحزا شحيحا يافتى أن مولاك غمام مغدق

عمرو : سيدى ليس هنا

خزيمة : لا بل هنـــا حاضرٌ . ويحك هلا تصدق

أعطه الزاد الذى هيأته

عمرو ـ فى دهشة : سيدى نحن إليـــه أشوق

خزيمة ـ بلهجة الآمر : أعطه

عمرو ـ للسائل « خذ » ثم لنفسه :

خذ . ليت شعرى ضلةً أجواد سيدى أم أحمق

السائل : لك شكرى يا ابن بشر إنما أنت فى الرّقة بدر مشرق
عمرو ـ داقا يدا بيد : أخذ الزاد وولى . ويحه ذاك والله بلاء مطبق
خزيمة ـ لعمرو بعد انصراف السائل :

ذاك ياعمرو فقير جائع فإذا لم يُعْطَ زادا يسرق
ماتعودت قديما أن أرى منزلى فى وجه عاف يغلق
ياإلهى لك أشكو علتى همة عليا وعيش ضيق

يسمع طرق بالباب:
عمرو ـ فى تأفف : كثر الطارقون . من الباب
شاعر : شاعر مفلق رفيع الجناب
جئت أطرى خزيمة بقصيد رائع صيغ من نضار مذاب
عمرو : سيدى ليس ها هنا
عمرو ـ بعد أن ينظر إلى سيده فى خوف
بل هنا ادخل
الشاعر : لك شكرى يا أكرم الحجاب
يقف الشاعر أمام خزيمة وينشد :

يا ابن بشر إليك أحدو ركابى جئت أشكو إلى جنابك مابى
لم أجد فى العراق مثلك سمحا أريحيا يعطى بغير حساب
أنت فى الرّقة الخصيبة نهر نرتوى منه ساعةَ الأجداب
أن أقل أنت ياابن بشر سحاب فكأنى رفعت قدر السحاب

خزيمة ـ وقد كان لابسا جبتين يخلع أحداهما على الشاعر ويقول :

قد أجدت القريض شكرا جزيلا قم تجلبب بذلك الجلباب
وإذا كان ما منحنا قليلا فاجعلِ العذرَ فى مكانِ العتاب

الشاعر ـ وهو منصرف

هبة جزلة سألت ألهى لك يوم الحساب حسن الثواب

عمـــرو ـ لنفسه داقا يدا بيد

ما كفاه بذل الطعام فأمسى كلفا مغرما ببذل الثياب

خزيمة: أيا عمرو ويحك لا تعذُلِ متى ضاق عن طارق منزلى

سأصبر صبر الجواد الكريم إلى أن أرى غمرتى تنجلى

أرى الحر مثلَ الحسام إذا لم يقلبْ على النار لم يُصقل

فياحادثات الزمان هلمى أنيخى ببابى ولا ترحلى

لئن أك أصبحت من غير مال فأنى بمـــالىَ لم أبخل

فكم قد أويت يتيما وكم قد عطفت على سائل مُمْعِيل

إذا أنا أيسرت كنت الجوادَ وإن أنا أعسرت لم أسْأل

إذا ساء يومى صبرت وطاب رجائىَ فى الزمن المقبل

إذا صدعنى الأخلاء فالأر ض لم تخل من ماجد مفضل

طرق على الباب . عمرو يفتح ويقول :

من يدق الباب من ماذاجرى؟ سائل أم شاعر ياهل ترى ؟

عمرو ـ بعد أن يرى عكرمة متنكرا :

من أنت يامولاى ؟

عكرمة ـ وهو مقنع :

لستُ أدرى أينَ الفتى خزيمة بن بشر ؟

عمـــرو ـ لسيده :

مولاى زائر مخيفٌ منظرُهْ أخوفُ ما أخافني تنكرُهْ

خزيمة ـ يسير نحو عكرمة :

هل لكِ حاجة فأقضيْـها لكا

عكرمة ـ مادا يديه بصرة مال :

خذ هذه أصلح بها أحوالكا

خزيمة ـ وهو يتأمل الصرة :

ماهذه أصلة أمالُ ؟ أنت لعمرى سيد مفضالُ

من أنت أيها الكريم المجزلُ

عكرمة : آسف . لاجواب عما تسألُ

خزيمة : أقسمت لاقبلت ما منحتا ألا إذا عرفتنى من أنتا

عكرمة : خزيمةُ خطبك عزَّ علىَّ وذاد عن العين طيبَ المنامْ

بربك لاتفسدن صنيعى بهتك الحجاب وكشف اللثام

إذا رمت أن تعرف اسمى فإنى أنا جابرُ عثرات الكرام

خزيمة : بربك ياصاح زدنى بيانا

عكرمة : محال . ومنى عليك السلام

خزيمة ـ لعمرو بعد انصراف عكرمة:

ياعمرو أوقد السراج حالا حتى نعد هذه الأموالا

عمرو : أين السراج هل نسيت أننا بعناه عصرا واشترينا قوتنا؟

ثم يأخذ الصرة ويقول :

أنا أعد المال فى الظلام عمرو غدا أبصر من حذام

أن بريق الذهب الوهاج يشق جوف كل ليل داج

يعد المال ويقول : ألف وألف ثم ألف متبعه من الدنانير بألف أربعه

خزيمة : من ذا الذى جادبها ياللعجبْ ماسمعت بمثل ذلك العربْ

عمرو ـ فى فرح يخرجه عن رشده:

مولاى هات اشترِ الطعاما واشترِ الكئوس والمداما

سنأكل الخراف والنعاجا ونلبس الدمقس والديباجا

يا للثراء والرخاء والغنى من أنا؟ أنى لست أدرى من أنا؟
أنا سليمان أنا هشام قد خضع العراق لى والشام
أنا أخو المنذر والنعمانِ لا بل أنا كسرى أنو شِرْوَانِ

ستار

المنظر الثانى

يرفع الستار عن بهو فى دار الامارة بالجزيرة التى يحكمها عكرمة الفياض واليا من قبل سليمان بن عبد الملك . فى بهو الدار أسامة بن عكرمة وعند الباب الغلام قيس . الوقت بعد العشاء .

أسامه ـ لنفسه : رباه ما الذى حصلْ ؟ أين أبى أين رحلْ ؟
أين تولَّى فى الظلا م وحده على عجل ؟
ما ذاك من عادته لابد من أمر جلل
قيس

قيس : نعم مولاى

أسامه : هل رأيت والدى

قيس : أجل
إن الأمير سيدى صلى العشاء وانفتل
شاهدته حين مضى ببرده قد اشتمل
وفوق وجهه ورأ سه قناع انسدل
ولست يامولاى أد رى ما بيمناه حمل ؟
لكنه إلى خزا نة النقود قد دخل
ثم مضى فردا وما أخبرنى على الأقل
وددت لو أسأله عن سر ذلك العمل
لكننى خشيت من هيبته فلم أسل

صبرًا لعـــله يعود بعد برهة

أسامة : لعل

قيس ـ بعد أن ينظر بإمعان نحو الباب :

أقبلْ أسامة أقبل أنعم النظرا ٭ مولاى عكرمة الفياض قد حضرا

أسامة ـ فى سرور ودهشة : حقا أنى ؟

قيس : أى وربى تلك مشيته ولم يزل مثلما قد كان مستترا

عكرمة ـ يدخل وهو فى تنكره : من هاهنا؟

أسامة : أنا أنا أسامةْ أبى أبى هل عدت بالسلامة

عكرمة : هل كنت فى حرب ؟

أسامة : وأىِّ حـــربٍ إنك ياأبى شغلت قلبى

عكرمة : الخطب سهل يابنى فاطمئنْ

أسامة : لا يا أبى فالأمر فوق ماتظنْ

بالله أين كنت فى جنح الدجى ؟

عكرمة : بنىَّ لاتترك أباك محرجا

أسامة : سلمت ياأبى من الإحراج هناك مايدعو إلى اللجاج

أما علمت ما أصاب أمى ؟

عكرمة : ويحك ما أصاب بنت عمى ؟

أسامة : هيهات ماقرلهـــا قرارُ والدمع فوق خدها مدرارُ

تقول فيم يخرج الأميرُ ؟ ليلا ومن ياهل ترى يزورُ ؟

أزوجة أخرى يزور ياترى؟ لو لم يكن هذا لما تنكرا

إنك ياأبى شغلت بالهـــا وإن تكن شكت فقد حقَّ لها

عكرمة : حسبك ماأبديت من أسباب ماكان هذا الأمر فى حسابى

عكرمة ـ للحاجب : يأيها الحاجب قم ودعنى منفردا هنيهة مع ابنى

عكرمة — بعد خروج الحاجب :

أسامة قل لأمك لن تراعى ... فحقك ليس بالحق المضاع

خرجت وما خرجت لأجل إثم ... فليس الإثم ويحك من طباعى

خرجت إلى مواساة ابن بشر ... وليس لديه بر ملءُ صاع

كريم أخنت الدنيا عليه ... فعضته بأنياب السباع

قد انقطع الفتى فسألت عنه ... فقيل الفقر علة الانقطاع

فقمت إليه فى جنح الدياجى ... وقد غطيت وجهى بالقناع

فألفيت ابن بشر وهو طاو ... مع امرأة وأطفال جياع

خزيمة يشتكى جوعا وعريا ... وعكرمة غريق فى المتاع ؟

علام إذن سليمان انتقانى ... وولانى على تلك البقاع ؟

أنا والى الجزيرة كل مالى ... ونفسى للجميع على المشاع

اسامة : أبى أقنعتنى لكن لماذا ... ذهبت إلى ابن بشر فى قناع

عكرمة : أأتركه يظن المالى دينا ... فأثقل همه من غير داع ؟

على أنى أرى المعروف جهرا ... شبيها بالرياء وبالخداع

ومابذل الجميل من ابتغى من ... وراء جميله أى انتفاع

وأنكر ساعة المعروف نفسى ... وأنكر مابذلت من المساعى

خشيت على خزيمة أن يرانى ... فيشعر بالهوان والاتضاع

وطعم الذل عند الحر سم ... زعاف دونه سم الأفاعى

أرى حمل الرواسى مستطاعا ... وماحمل الجميل بمستطاع

أسامة : ألم يسأل عن اسمك ؟

عكرمة : لم أجبه ... إليه ، وحين هم بالامتناع

كنيتُ بجابرِ العثراتِ نفسي

أسامة : رعاك الله من شهم شجاع

ستقنع يا أبي أمي بهـــذا أذا سمعته غاية الاقتناع

عكرمة : أسامة قل لأمك ذاك سر

أسامة : أبي ماكان سرك بالمذاع

ســـتار

ممنوع تمثيل الرواية بدون إذن المؤلف

محمود غنيم

مدرس بمدرسة فؤاد الأول الثانوية

يتبع

الي الأمام

للأستاذ عبد الرزاق ابراهيم حميده

هذا هو عنوان الجيش المصرى المجيد التاريخ ، المشهور الأيام ، الذى هو معقد آمالنا وحامى ديارنا ، وآية مجدنا ونخرنا ، وقد استعار الأستاذ الفاضل زكى بك المهندس هذا العنوان علما على كتاب أخرجه للناس حديثا ، ووجه الخطاب فيه إلى شباب الوادى السعيد يستنهض عزائمهم ، ويستثير حميتهم . ويدعوهم بجد وإخلاص إلى الكفاح والجلاد فى هذه الحياة الناشطة المسرعة الخطى ، التى لاتقف سيرها انتظارا لمتوان ، ولا تبطىء فى سيرها رفقا بالعجزة والضعفاء .

رأى أستاذنا أن الشباب هم رجال المستقبل فعليهم تبنى الأمة مجدها فى غد ، ومنهم قادتها فى الفكر والأدب والصناعة والتجارة بعد حين . وهم الآن أحوج مايكونون إلى رأى رشيد ، وهداية إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ليحققوا الأمل ، وينهضوا بالبلاد نهضة مباركة ؟ لهذا رأى — وهو رجل علمته التجارب وهذبته الأيام - أنه يجب عليه أنه يخرج من حجرة الدراسة إلى دائرة أوسع منها فينصح كاتبا كما ينصح مدرسا . وأن يوجه أنظار الفتيان إلى المثال الأعلى ، ويبصرهم بالطريق إلى هذا المثال الذى يجب أن يقصد إلى تحقيقه الشباب جميعا لينفعوا بلادهم وأنفسهم وليخلد ذكرهم وذكر بلادهم مرة ثانية ، كما خلد من قبل بفضل الفراعين الشداد والعرب الأمجاد الذين ورثنا حضارتهم وأرضهم وديارهم .

وقد تحدث الأستاذ الفاضل فى كتابه حديثا جامعا شاملا لكل مايهم الشباب ، وما يجدر به أن يتجه إليه ، ومايليق به أن يفعله ، وماعليه أن يتركه ، وكان فى أسلوبه متدفقا كعادته ، سهلا فى عبارته ، مترفقا فى نصيحته لطيفا فى عرض فكرته واضحا فى بيان مقصده ، يدعو إلى الهدى بالحكمة والموعظة الحسنة . ويضرب الأمثال من عظماء الرجال فى الشرق والغرب ويقص من سير النابهين مايحبب إلى الشباب العمل ، ويهون عليهم مراقى العلا ، ويفسح أمامهم الأمل .

وقد بدأ كتابه بعرض مختصر ـ ولكنه واف بالمراد ـ عن حياتنا الجديدة فى القرن العشرين ، وما أحدثته الحرب الكبرى من تغيير فى التفكير والصناعة والأخلاق ، وبخاصة فى مصر ، ثم عقب على ذلك بأن حياتنا من صنع أيدينا وأننا قادرون على أن ننتفع بما خلق الله فى السموات والأرض كما انتفع آباؤنا وأن نسخر مافيهما لسعادتنا كما شاء الله سبحانه أن يكون . إذ يقول جل شأنه « وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ولا بد للنجاح فى اخضاع القوى لإرادة الإنسان من ثمن غال ندفعه من وقتنا وصحتنا ومالنا ، ولا بد من المثابرة والاستمساك بالصبر وأن نكون عمليين لاخياليين ، وأن نؤدى واجبنا ونتقن عملنا مهما كان نوعه . ونتخلى عما يملأ رءوسنا من أوهام وأباطيل ، فلا نحتقر عملا ما ولا نركن إلى جاه موروث ، أو مجد تالد . بل

« نبنى كما كانت أوائلنا تبنى وتفعل مثل مافعلوا »

ولا يقعد بنا عن العمل فشل طارىء . أو حظ سيىء ، فكثيرا ما كانت الهزائم أول الانتصار ، وكم فتى نال المجد والشهرة بما لاقى من عنت الحظ وسوء الطالع . فالعزائم القوية والنفوس الأبية لاتجعل للبأس عليها سلطانا ، فهو يدعو إلى انتهاز الفرصة ، واستثمار الوقت ، والانتفاع بالمواهب فى الحصول على المآرب ، والوصول إلى الغايات .

وما أجمل حديثه ونصحه « للطالب اليائس » الذى ثابر على العمل ثم باء بالفشل ، ينصح له ألا ييأس ولا يبتئس ، ويدعوه إلى أن يستعين بالصبر وأن يحاول مرات . وما أخلق ذا الصبر أن يحظى بمطلبه . ويفوز بغايته . وكم تعلم القواد والنابغون بمثابرة النملة التى لا يثنيها عن الغاية مايصيبها من إخفاق فى قصتها المعروفة التى تتكرر كل يوم ، وتساق عند كل مناسبة ، دليلا على أثر المثابرة فى النجاح .

« أما مدرسة البؤس والفاقة » التى أخرجت للناس أبطالا من أمثال على مبارك ، وعبدالله فكرى ، ومحمود الفلكى ؛ وضعة النسب التى لم تؤثر فى عظمة أديسن وفردى ولابلاس من كبار النفوس والآمال فقد خصها الأستاذ بعنايته ، وضرب أمثالا كثيرة بمن خرجتهم هذه المدارس من الخالدين لكى يبعث فى نفوس الشباب أيا كان منبتهم اعتمادا على عملهم ، وثقة فى مستقبلهم ماداموا جادين طامحين ، وليبعد عنهم وساوس الشيطان التى تدعوهم إلى الانزواء ، أو احتقار الماضى ، وحدثنا أنه يعرف من هؤلاء عددا كبيرا يستخفون من الناس ، ويتجاهلون أيام بؤسهم وشقائهم ويابون أن يعرف الناس عنهم أنهم نشئوا فى بيئة فقيرة ، أو عاشوا عيشة خشنة فى أيامهم الأولى ولكن من بيننا الآن من كبرت نفسه فافتخر بماضيه البائس . وطفولته المتواضعة ، ذلك هو الدكتور طه حسين بك الذى تحدث « فى الأيام » حديثا كله صراحة عن حياته وبيئته وأسرته ودراسته الأولى على مافى ذلك كله من عيوب مشرفة ، وذلك مثال أذكره دليلا على أن من كبرت همته وسمت نفسه لا يرى فى الفقر . ولا بؤس العيش ، ولا رقة الحال فى الأيام الأولى من الحياة عيبا . وذلك هو مايريد الأستاذ المهندس بك .

والناس بأفعالهم وآثارهم لا بأحسابهم وأنسابهم عند الله والناس . ذلك مبدأ القرآن « فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت

موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون » .

وما أعظم الأخلاق المتينة أثرا فى نجاح المرء فى الحياة ! وما أجدر الأفراد كلهم أن يسموا بأخلاقهم ويرتقوا بآدابهم وأفعالهم ، ويفخروا بتربيتهم وتهذيب نفوسهم و « إن التاريخ يحدثنا بما كان لذوى الخلق النبيل والشخصية القوية من الأثر العظيم فى بناء الممالك وتكوين الأمم » ومن أولى بالذكر من النبي محمد ﷺ ؟ لقد مدحه الله جل شأنه . فلم يمدحه بالغنى أو القوة بل مدحه بعظمة الأخلاق فقال جل شأنه « وإنك لعلى خلق عظيم » . أليس ذلك دليلا عن أن عظمة النفوس وعظمة الشعوب من عظمة الأخلاق ؟

أما حديثه عن دين الشباب فحديث يتجلى فيه الإيمان الصادق بما للدين من أثر فى سعادة الناس أفرادا وجماعات . ويتجلى فيه الاعتقاد الراسخ بما كان للأديان من أثر فى رقى الأمم روحيا وأدبيا وفنيا ، فقد هذبت الأديان النفوس التى استمسكت بها ، وأوحت إلى عقول المؤمنين بأسمى الأفكار، وأروع آيات البيان وأثرت حتى فى الفنون الجميلة وبخاصة العمارة .

ولم ينس أن يُـعَـرِّضَ بأولئك المارقين الذين يحاولون إفساد النفوس وإضعاف أثر الأديان بدعاويهم الخلابة المظهر من قولهم « إن الدين أمر شخصى لا صلة له بحياة الإنسان العامة » ويرد عليهم ردا قويا مبينا يدحض فيه حجتهم بالمنطق وبالأمثال . ويخص الدين الإسلامى بما هو جدير به من مدح وتمجيد لما له من فضل فى تكوين العقل والأخلاق .

ويخص من أحكام الدين بالذكر الرق وقطع يد السارق والجلد أو الرجم فى الزنا ، ويدافع عن هذا كله دفاعا مجيدا . غير أنى أود أن أرد شبهة قد تعرض لمن يقرأ حديث الأستاذ الفاضل عن الرق فى صفحة ٥١ من الكتاب فهو يقول « إن الدين الإسلامى لم يخلق الرق ولا فرضه على العالم ، فما كان

لامرىء أن يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وإنما تناول الرق كما وجده ، تناوله بكل ضروب العطف والرعاية » حقا إن الإسلام جاء والرق موجود ، ولكن إقراره له إقرار بصلاحه ، وإن هذا يدعونا إلى أن نقول : لو لم يكن الرق موجودا لابتدعه الإسلام . مادام الاسترقاق مبدأ مقررا فى الدين القويم ، وذلك لأن من الناس من وضع نفسه موضعا لايليق بمن يقدر إنسانيته أن ينزل إليه . فحارب الهدى وكفر بالحق ، وألقى عقله الذى ميزه الله به على الحيوان ، فمن الواجب استرقاق هذا فإقرارالإسلام للرق لايتوقف على وجوده أو عدم وجوده بل هو مبنى على أنه مبدأ صالح لبعض النفوس . وأنه ضرورة من ضرورات الاجتماع.

وعلى الرغم من أن الأستاذ زكى بك مدنى قاهرى نراه يهتم بالريف ويقول « يجب أن يكون الريف موطن تفكيرنا وعنايتنا » ويرى أن مابذل فى سبيل الفلاح قليل جدا ، وأن تعليمه مع إهمال صحته لا يفيد شيئا .

وهو على حق فيما يرى فأغلبية المملكة المصرية فلاحون ، وهم بائسون حقا، صحتهم معتلة ، وغذاؤهم ناقص ، ومساكنهم أشبه بالقبور ، وأجورهم لاتكفى لطعامهم ، وأمراضهم متعددة الأسماء والأفعال ، وهم فى حاجة إلى العناية الجبارة والجهد المتواصل ليقوموا بخدمة البلاد فى السلم والحرب ، فهم عدتها فى الحالين ، وهم أحق بالرعاية والإصلاح من أى مشروع آخر فى البلاد

ولم ينس الأستاذ الفاضل صناعته . فهو أستاذ التربية بدار العلوم . ولهذا وجه بعض عنايته إلى عيوب المدرسة والامتحانات والاستظهار دون الفهم ، والفهم دون التطبيق ، والثرثرة التى لا يعقبها عمل منتج وأخذ على الشبان ماخلفته الثورة فيهم من ميل إلى الخروج على النظام .

وكنت أود أن أراه يعالج خروج الفتيان على مايجدر بالرجل أن يفعل كالتخنث والتزين بزينة النساء واللهو الآثم ويصارحهم بعيوبهم فى هذه الناحية

فهم فى حاجة إلى مثل أسلوبه الساحر القوى وخبرته الواسعة بالغرائز ودراسته لعلاج أمراض الشباب .

وبعد فلم ترك الأستاذ الفاضل الحديث عن الفتيات حديثا خاصا فى فصل خاص أو فصول ؟ إنهن فى حاجة ماسة إلى التوجيه والإرشاد وإلى ما ينبغى أن يفعلن ويتركن ، ومايجدر بهن أن يشتغلن به ويقمن بعمله فى البيت وخارج البيت ولعله يفعل إن شاء الله فى الطبعة الثانية .

أما الطبع فهو جميل ، والكتاب يكاد يخلو من الخطأ ولكن القارىء الذى يود أن يصحب هذا الكتاب فى نزهته ، ويأنس بقراءته فى أوقات فراغه يجد كِبَره وطول صفحاته مانعا من ذلك ، فالصفحة الكثيرة السطور الصغيرة الحروف كثيرا ماتصرف القارىء أو تضجره . ولو أن الكتاب ظهر فى صفحات أقل من هذه طولا — ثلث الطول الحالى — لكان أكبر حجما ، وأخف حملا ، وأحب شكلا ، وفى ذلك كله مايضاعف عدد قرائه .

فهل يتفضل الأستاذ المفضال بعظيم الشكر على هديته ، والتهنئة على توفيقه — على الرغم من هذه الملاحظات — فى اختيار موضوع الكتاب ومعالجة أبوابه واستيفاء كل نقطة من نقطه . وإليه أطيب التحية .

عبد الرزاق ابراهيم حميدة

خالد بن برمك

للأستاذ محمد أحمد برانق

يدور على ألسنة الأدباء والمؤرخين كثيرا ذكرُ البرامكة ، لما كان لهم من عظيم الأثر فى توجيه السياسة الإسلامية حقبة من الزمان ؛ فهم الذين كانوا يقومون بتدبير شئون الدولة فى عصر يعتبره بعض المؤرخين أنضر العصور الإسلامية وأزهاها حتى قصرت يد الرشيد عن النظر فى أمور الرعية، وحتى كاد أن لا يكون مطلق اليد فى شئونه الخاصة ، وهم الذين أغدقوا على الشعراء أبواقِ ذلك الزمان ، فبسط هؤلاء ألسنتهم بمدحهم ، وأشادوا بذكرهم، لما نالوا من جزيل عطاياهم ، وهم الذين قربوا إليهم العلماء ، فباحثوهم ،وتناقشوا فى مجالسهم ، وهم الذين كان يخشاهم كبار ساسة زمانهم حتى قبل أن تكون مقاليد الأمور فى أيديهم ، فدبروا لهم المكايد . وسعوا عليهم عند الخلفاء ، وكانوا يحاولون أن يحملوهم على مكارههم بما يلفقون لهم من زور وبهتان ، ولكن الباطل ليس له يدان ولا رجلان ، فكان الله ينقذهم ، وإن تصرفهم فى أمر هذه الدولة دل على أن فيهم ذكاء . وفطنة ، وقدرة على الاضطلاع بأعباء المضلع من الأمور .

هؤلاء القوم نكبهم الرشيد بعد أن خاف أن يزول عنه سلطانه ، وخشى أن تصير الخلافة الإسلامية العربية ملكا كسرويا قد يكون فيه بعد ذلك خطر على العقيدة الإسلامية ، فقتل من قتل ، وسجن من سجن ،واستصدر أموالا

وأيم نساء، وعقد ألسنة الشعراء، حتى لا يبسطوا ألسنتهم فى رثائهم، فكانت هذه النكبة من الحوادث التاريخية الكبرى التى غيرت وجه التاريخ، لأنهم لولم يعجل بهم الرشيد لكان الأمر فى المدة الباقية من أيامه وفى أيام خلفه غير ما كان، ولكانت معرفتنا، بتاريخ الدولة الاسلامية غير ماعرفنا ولذلك ترى اسم الرشيد مقرونا باسم البرامكة، واسم البرامكة مقرونا باسم الرشيد؛ وكثير من الناس يرددون أسماءهم، ولا يعرفون عنها أكثر من أنها أسماء برمكية، كما لا يعرفون عن نكبتهم أكثر من أن الرشيد قتل وسجن وعذب وخرب البيوت، وأخذ الأموال، وأرمل النساء، ويتم الأطفال، ولم تنفع شفاعة الشافعين، ولا استرضاعه فيهم أيام كان رضيعا،

واتصال البرمكيين بالاسلام كان قبل عهد الرشيد، ولعله نشأ فى أواخر دولة بنى أمية حيث كان خالد بن برمك يعمل فى جيش قحطبة بن شبيب؛ فيتقلد خراج مايفتحه الجيش من البلاد، ويتولى الغنائم، ويقسمها بين الجند، وكان يجتهد أن يكون عادلا فى توزيع الغنائم، فأرضى جميع أهل خراسان، حتى قيل: مامن أحد من أهل خراسان إلا ولخالد عليه يدٌ ومِنَّة، لأنه قسط الخراج فأحسن فيه إلى أهله.

ولم يكن خالد مع ابن قحطبة يتولى الخراج فحسب، ولكنه كان ذا رأى مطاع لخبرته وفطنته وذكائه. حدثوا أنه كان يوما مع قحطبة بن شبيب على سطح قرية من القرى التى استولى عليها، وكانوا يتغدَّوْن، فنظر خالد فرأى أقاطيع الوحش من الظباء والبقر أقبلت نافرة، وخالطت العسكر، فلما رآها فعلت ذلك، وطبعها أن تنفر من العسكر، علم أنها لم تخالطه إلا لشىء وراءها أعظم مما دخلت فيه، فبادر إلى قحطبة أمير الجيش، وقال: يأيها الأمير، قد أتينا، وجيوش العدو قريبة منا، فَمُرْ من ينادى بالسلاح، فعجب قحطبة من فطنته وذكائه، وأمره بالنداء فى العسكر ففعل، ولم يمض إلا قليل حتى كان

ابن حنبارة وجيشه وفدوا عليهم، وكانت بينهم حرب انتهت بقتل ابن حنبارة، وأرسل قحطبة برأس إلى أبى مسلم ظنا منه أنها رأس ابن حنبارة، ولكنه لم يلبث أن تعرّف على رأس ابن حنبارة بنقش خاتمه، فلما هم أن يرسله إلى أبى مسلم بدل الرأس الأول، منعه خالد بصحة رأيه لأنه إن فعل ذلك أبطل الاول والثانى، أى أن أبا مسلم يشك فى الرأس المرسل إليه أولا وثانيا. ويعرف أن قحطبة لايتثبت من أمره قبل أن يفعل مايفعل. ويوم ابن حنبارة هذا هو الذى وصفه خالد المهدى بأنهم لما صافّهم القوم خفقت ألويتهم بالنصر، وقذف الله فى قلوب أعدائهم الرعب، وهبت ريح الغلبة، فلم يمض إلا قليل حتى انجلى الأمر لهم بالنصر فكان منهم لله حمد وشكر فعجب المهدى لإحسانه وإيجازه .

٭٭٭

كان لخالد شأن فى تلك الحروب، فهو نافذ البصيرة، فيه ذكاء وفطنة وكياسة، وانتهت الحروب بالقضاء على بنى أمية، واستتمام الأمر لأبى العباس السفاح، فذهب خالد إليه ليكون فى جملة من يبايعونه بالخلافة، فرأى فيه فصاحة توهم سامعه أنه من العرب .فسأله ممن الرجل ؟، فقال : مولاك خالد بن برمك وتحدث إليه ببعض شأنه ثم قال : وأنا الكميت بن زيد :

فما لى إلا آل أحمد شيعة وما لى إلا مذهب الحق مذهب

فأعجب به السفاح، وأقره على ما كان تحت يده من الغنائم، ثم قلده ديوان الخراج، وديوان الجند، وهو أول من جعل تدوين مايثبت فيها فى دفاتر بدل الصحف، وجعل للعمل نظاما مرسوما، يسهل به إنجاز الأعمال، وييسر الرجوع إليها

ولما رأى أبو العباس ما فيه من فطنة وذكاء، وما هو عليه من إخلاص فى العمل وكفاية له، رخصه به، وألحقه بمجلسه، وأحله محل الوزير، وكانت

له عنده منزلة خاصة ، حتى أن ريطة بنت أبى العباس رضعت من زوجة خالد وأم سلمة زوجة السفاح أرضعت أم يحيى بنت خالد ، ولقد تبسط معه يوما فى الحديث فقال : لم ترض يا ابن برمك حتى استعبدتنى ، فانزعج خالد من ذلك ووجم ، وقال : أنا عبد أمير المؤمنين ، فقال أبو العباس : كانت ريطة وأم يحيى فى فراش واحد ، فتكشفتا ، فرددت عليها اللحاف ، فقبل يده وشكر له . وظل خالد على منزلته تلك عند أبى العباس حتى كان يستشيره فيما جل من الأمور ، ويشكو إليه همه ، ويبثه حزنه ، ويعمل بتدبيره ، وقد كان خالد حازم الرأى ، بعيد النظر ، مخلصا للخليفة ، متفانيا فى خدمته ، وقد شكا إليه الخليفة يوما أنه يخشى نفوذ أبى مسلم الخراسانى ، فإن له فى نفوس الجند منزلة عظيمة ، يهابونه ، ويخشونه ، ويأتمرون بأمره ، وينتهون عند نهيه ، فلم تعزب الحيلة عن ذهن خالد ، ولم يعز عليه أن يشير على الخليفة برأى فيه تشكيك للجند فى أبى مسلم ، وحط لمكانته وخضد لشوكته ، وفل لغربه ، وتوهين لقوته ، أشار عليه أن يأمر أبا مسلم بعرض الجند ، وإسقاط من لم يكن من أهل خراسان منهم ، ففعل أبو مسلم ذلك ، من غير أن يفطن للأمر ، وجلس للعرض فى أول يوم وأسقط جندا كثيرا ليسوا من أهل خراسان ، ثم جلس فى اليوم الثانى ، وفعل مافعل فى اليوم الأول ، ثم جلس فى اليوم الثالث فدعا بالناس فلم يقم أحد ، فدعا ثانية فلم يقم أحد فدعا ثالثة فلم يقم أحد ، ثم قام إليه رجل فقال : علام تسقط الناس أيها الرجل منذ ثلاث ؟ . فأجابه أبو مسلم : أسقط من لم يكن من أهل خراسان ، قال : فابدأ بنفسك ، فإنك من أهل أصبهان وقد دخلت فى أهل خراسان .

وهنا فقط تنبه أبو مسلم ، وفطن لما أريد به ، وعلم أن هذه حيلة حيكت لتنفير الجند منه ، وقال : هذا أمر أحكم بليل ، حسبك من شر سماعه .

وبهذه الحيلة استطاع الخليفة أن يسىء العلاقة بين الجند وبين أبى مسلم ،

أو أن يجعلها تفتر على الأقل، حتى لا تكون هيبة الجيوش إياه مصدر خوف وانزعاج له في كل وقت.

***

مات أبو العباس السفاح وتولى أمر المسلمين من بعده أخوه أبو جعفر المنصور، ولم يبق حظ خالد مع أبي جعفر مثل حظه مع السفاح، فإن أبا جعفر عزله عن الخراج، وصرفه عن الديوان، وولاه فارس، فأقام بها سنين وكان أبو أيوب يخشى على نفسه أن يزيله خالد عن مركزه، وكان يتخوفه على مجلسه لما فيه من الفضل، فيصرفه المنصور عن الديوان، ولذلك كان لا يألو جهدا فى السعى على خالد عند المنصور، ويحضه على مكروهه، ويبغضه إليه، ويصوره له فى صورة الماكر المخادع الخائن؛ ليضعف محله عند المنصور، ويسقط من عينه، فتأثر المنصور بكلام وزيره أبى أيوب. ونكب خالدا، وألزمه أن يدفع لبيت المال مالا كثيرا لا قبل له به، فاعتذر خالد للمنصور، فلم يقبل عذره، وأبى إلا أن يدفع المال، فقدم بعض من يؤمنون بأمانة خالد ونزاهته المساعدة إليه، وحمل كل منهم قطعة من ماله أو جواهره إليه، وكان ممن ساعده أم الرشيد، لأن خالدا كان أباه رضاعا؛ فلما علم أبو جعفر أن أصدقاء خالد يساعدونه بالمال — أعفاه من الدفع، إذ تحقق لديه أنه لا يملك ماحكم به عليه.

ولكن أبا أيوب لم يطمئن قلبه إلى مافعل المنصور مع خالد، وأبى إلا أن يزيد فى إيغار صدره من ناحية أبى جعفر، فجاء بجهبذ نصرانى، ودفع إليه مالا، وأمره أن يعترف بأنه لخالد إذا سأله المنصور ثم دس أبو أيوب إلى المنصور من يخبر خبر مال خالد الذى عند النصرانى. فلما عرف المنصور ذلك أحضر النصرانى وسأله عن المال، فاعترف أنه لخالد بن برمك، فعز على المنصور أن يكذب عليه خالد وأن يخفى عنه ماله، ثم يساعده الناس ليسد الإتاوة

المفروضة عليه ، ثم أمر بإحضار خالد ، فلما حضر سأله عن ذلك المال،فحلف بالله أنه لم يجمع مالا قط ولا ادخره ولا يعرف ذلك النصرانى،ورجاالمنصور أن يحقق ذلك الأمر ، فخلى أبو جعفر خالدا بحضرته ، وأحضرالنصرانىأمامه وسأله أتعرف خالدا إن رأيته؟ ، قال : نعم يا أميرالمؤمنين — أعرفهإنرأيته وكان خالد جالسا أمامه ولم يعرفه ، فالتفت أبو جعفر إلى خالد ، وقال له : الآن حصحص الحق ، قد أظهر الله براءتك ، ثم وضع أبوجعفر يدهعلى المال وأضافه إلى بيت مال المسلمين وقال لخالد : هذا مال أصبناه بسببك ، ثم قال للنصرانى : هذا الجالس خالد ، فكيف لم تعرفه ؟ ، قال:الأمان يا أميرالمؤمنين وأخبره الخبر ، فكان لا يقبل من أبى أيوب بعد ذلك شيئا فى خالد ، ولكنه لم يؤاخذ أبا أيوب على ما أوقع به لخالد لماله عنده من المنزلة الخاصة التى نذكرها عند الكلام عن أبىأيوب .

***

وأما فى زمن المهدى ، فإنه لما وزر له أبو عبيد الله فسد ما كان بين خالد وأبى عبيد الله من التصافى ، وذلك لأمر يكاد يكون كالذى كان بينه وبين أبى أيوب وزير المنصور ، أو قريبا منه ، فإنهم يقولون : إنه كان بين أبى عبيد الله وخالد سر ، فظن أبو عبيد الله أن خالدا يحسده على مكانه من المهدى ، وعلى موضعه فى الوزارة ، وتخوفه على السر الذى بينهما وكان أسره إليه ، فلما علم بذلك خالد ركب حتى أتى باب أبى عبيد الله ، فلما رآه غلمانه أعظموا ذلك ، وتبادروا إليه يستقبلونه ، ولما علم أبو عبيدالله بقدم خالد ، تعجب وخرج مسرعا للقائه ، فقال له خالد : بلغنى عنك أنك تخوفتنى على سر كنت أسررته إلى ، وما أتخذ مودتك عدة لعداوتك ، ثم حلف له أيمانا مغلظة أن لو قطع إربا إربا ما ذكر ذلك تعريضا ولا تصريحا ، ولا أطلع أحدا على شىء من هذا ؛ وليس ذلك ضرعا منه إلى أبى عبيد الله ، أو رغبة فيما لديه ؛ وانصرف من

داره ؛ ثم أوفد ابنه يحيي إلى أبي عبيد الله يخبره عن لسان أبيه أن كل امرأة له طالق ، وكل مملوك له حر ، وكل ملك له صدقة — إن دخل له منزلا أو كلمه أبدا ؛ فأدى يحيي الرسالة كما أمره أبوه ، فشق ذلك على أبي عبيد الله ،وأمر يحيي أن يكون فى حاجة أبيه ، فكان يحيي يلقاه فيكرمه ، ويقضى حوائجه ، والذى حدا بيحيي إلى هذا أنه كان يرى أن أبا عبيد الله رجل مسكين من صاحبه ، وقد وقع فى نفسه شيء عليه ، فقد يرقى إليه عن يحيي كلام لا أصل له ، فيقبله ويصدقه . أما وقد أظهر له ما فى نفسه منه ، فأنه يأمن سعى أحد عليه عنده ولا يجرؤ أحد أن يحمله على مكروهه ، ويضع فى حضرته من شأنه ، أو ينازعه محله .

وابتدأ اتصال خالد بهارون الرشيد زمن أبيه المهدى ، فإن المهدى أرسل ابنه هرون غازيا سنة ١٦٣ هـ ومعه خالد ، ولما قلد المهدى ابنه هرون بلاد المغرب ، كان خالد يكتب له ، فتولى ذلك ودبره ، وأحسن القيام عليه .

ويذكرون من أخلاق خالد أنه كان سخيا جليلا نبيلا سريا كثير الإحسان قال الجاحظ نقلا عن ثمامة : كان أصحابنا يقولون : لم يكن يرى لجليس خالد دار إلا خالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة ، أو أدى مهرها إن كانت حرة ؛ ولا دابة إلا وخالد حمله عليها — إما من نتاجه أو من غير نتاجه .

والذين كانوا يسترفدون الأغنياء ، ويطرقون أبوابهم للعطاء؛ جرى العرف فى زمنهم على تسميتهم بالسؤال ، فأنكر خالد ذلك الاسم واستقبحه ، لأنه يشعر بالمذلة والمهانة ، وقد يكون من بين السائلين والعفاة الأعزاء الأحرار ، وأبناء النعيم ، والأشراف الذين ألح عليهم الدهر ، فعضهم بنابه عضة نفذت فى صميمهم ، فألجأتهم إلى مد الأيدى ، وإراقة ماء الوجوه ، وتحمل المهانة فى ذل السؤال ، وقد يكون منهم من هو خير ممن يقصد ، وأفضل أدبا — أنكر

خالد ذلك الاسم واستقبحه ، فأمر أن يسمى كل مستميح عطاء ، أو طالب بر ؛ بالزائر وفى ذلك يقول بشار :

حذا خالد فى جوده حذو برمك لجود له مستطرف وأثيل
وكان بنو الإعدام يُدْعون قبله بلفظ على الإعدام فيه دليل
يسمون بالسؤال فى كل موطن وإن كان فيهم نافه وجليل
فسماهم الزوار سترا عليهمو فأستاره فى المجتدين سدول

ويظهر أن المرء كلما نبه شأنه ، أو أعجب به من لم تربطهم به رابطة صداقة أو زمالة فى عمل — تفتحت عليه عيون عارفيه ، فكانوا كلهم فى الحقد عليه ، والدس له ، وحمل الغير على مكروهه ، ونار الحسد تتلظى فى قلوبهم ؛ نحس زفيرها فى أنفاسهم ، ونقرأ صفحتها السوداء فى عيونهم . وهذا نظام سائر فى الكون ، منذ خلق الله الكون . لذلك كان خالد محسودا ، ويحاول حاسدوه أن يوقعوا به ، وقد مرت نكبته زمن المنصور ، وبرأه الله منها ، ولكنها لم تلبث أن عادت ، وتكررت زمن المهدى — وذلك أن المهدى كان أنفذ خالدا إلى فارس عاملا عليها ، فاستخلف خالد ابنه يحي ، فسقط الخراج عن أهلها ، ووضع عنهم خراج الشجر ؛ وكانوا يلزمون خراجا ثقيلا ، وأكثر خالد الصلات والجوائز والإحسان إلى كافة الناس وخاصتهم على عادته فى الإحسان؛ وكان يفعل ذلك ابتغاء وجه الله ، أو تألفا لقلوب الناس ، باسترضائهم ؛ أو ابتغاء الشهرة ، وبعد الصيت ، وجميل الأحدوثة ، أو لأى سبب آخر ؛ وهذا لا يعنينا فى قليل ولا كثير ، ولكن الذى يعنينا أنه تصدق ، وأنه أعطى ، وأنه أسرف فى العطاء ، حتى غضب الجند منه ، وبرموا به ، وشغبوا عليه ، فاضطر إلى قتل قائد منهم ليقضى على الفتنة قبل أن تهب من مرقدها ، ولكن عمله هذا أحفظ عليه بعض المتصلين بالمهدى ، فأكثروا فيه عنده ، وأساءوا فيه القالة ، ونسبوه إلى المعصية ، فغضب المهدى عليه ، ونكبه نكبة أشد من

نكبة المنصور له ، فإن المنصور اكتفى بصرفه عن عمله ، وتغريمه جملة من المال ، ولكن المهدى صرفه عن عمله ، وألزمه مالا جليلا ، ونجمه عليه نجوما أسبوعية فكان يؤدى فى كل يوم جمعة نجما منه ، ولم يكتف بهذا ، بل ساقه إلى السجن ، ولولا أن الخيزران زوج المهدى وأم هرون شفعت فيه بالرضاع الذى بين ابنها هرون ، وبين الفضل بن يحي بن خالد حتى رضى عنه ورد إلى منزلته — لولا ذلك لتلف فى السجن ، وقضى على أسرة البرامكة قبل أن يكون لها من الشأن فى تاريخ الإسلام مالها .

قدمنا أن خالدا خرج فى غزاة صائفة مع هرون بن المهدى ، فمات منصرفه من تلك الغزاة سنه ١٦٣ ﻫ ، وقيل إن ذلك كان سنة ١٦٥ ﻫ وبذلك سكنت أنفاس رجل كان خصيصا عند المنصور وابنه المهدى ، وولى الأعمال الجليلة ، وكان عاقلا مدبرا سيوسا ، فلم يبلغ مبلغه أحد من ولده فى جودة رأيه وبأسه ، وجميع خلاله ، وقد قصده الشعراء ومدحوه ، وأجزل صلتهم ، وممن مدحوه بشار ، ومن قوله يمدحه :

لعمرى لقد أجدى علىّ ابن برمك ... وما كل من كان الغنى عنده يجدى
حلبت بشعرى راحتيه فدَرَّتا ... سماحا كادر السحاب مع الرعد
إذا جئته للحمد أشرق وجهه ... إليك وأعطاك الكرامة بالحمد
لم َتعِم فى القوم لا يستثيبها ... جزاء ، وَكَيْل التاجر المد بالمد
مفيد ومتلاف سبيل ترائه ... إذا ماغدا أو راح كالجزر والمد
أخالد إن الحمد يبقى لأهله ... جمالا ، ولا تبقى الكنوز على الكد
فأطعم وكل من عارة مستردة ... ولا تبقها إن العوارى للرد

محمد أحمد برانق

٣ - المتصوفة

هذه الطريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ،
ومفتاحها الجارى منها مجرى التحرم فى الصلاة استغراق القلب بذكر الله ،
وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى ؟ الغزالى

للأستاذ عطية الشيخ

لن نبحث فى أصل كلمة التصوف ، ولا فى طبقات المتصوفين ، لأن البحث مقصور على الخصائص النفسية ، للأجناس العقلية ؛ ولذلك سنذكر هنا أهم الميزات النفسية للمتصوف :

(١) المتصوفة قوم تحكموا فى القوة الغضبية ، حتى كادت تموت فيهم ، فهم قد أعلوا غريزة المقاتلة ، وتساموا بها من مقاومة الغير ، إلى مقاومة الشر والشهوات الكامنة فى نفوسهم ، فالناس منهم فى سلم أى سلم ، وهم مع أنفسهم فى حرب دائمة ، إذ أول سلم للتصوف رياضة النفس ، وتهذيب الأخلاق . ولذلك يقول الكنانى : « التصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف » . ولهم فى الصفح عن المسىء والتسامح مع الناس نوادر كثيرة يحكى أن إبراهيم بن أدهم خرج يوما إلى بعض البرارى . فاستقبله رجل جندى فقال : أنت عبد ؟ قال : نعم . فقال له : أين العمران ؟ فأشار إبراهيم إلى المقبرة . فقال الجندى : إنما أردت العمران . فقال : هو المقبرة . فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ، ورده إلى البلد ، فاستقبله أصحابه . فقالوا :

ماالخبر ؟ فأخبرهم الجندى ماقاله له . فقالوا : هذا إبراهيم بن أدهم ، فنزل الجندى عن فرسه ، وقبل يديه ورجليه ، وجعل يعتذر إليه . فقيل بعد ذلك لإبراهيم: لم قلت له أنا عبد ؟ فقال : إنه لم يسألنى عبد من أنت ؟ بل قال : أنت عبد ؟ فقلت نعم ، لأنى عبد الله ، فلما ضرب رأسى سألت الله له الجنة . قيل : كيف وقد ظلمك ؟ فقال : علمت أننى أوجر على مانالنى منه ، فلم أرد أن يكون نصيبى منه الخير ، ونصيبه منى الشر . ودعى أبو عثمان الحريرى إلى دعوة ، وكان الداعى قد أراد تجربته ، فلما بلغ منزله قال له ارجع فرجع ، فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانية فحضر ، ثم قال له ارجع فرجع ، حتى عامله بذلك مرات ، وأبو عثمان لايتغير من ذلك ، فأكب على رجليه وقال : يا أستاذ ، قد أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك ! فقال الحريرى : إن الذى رأيت منى هو خلق الكلب ؛ إن الكلب إذا دعى أجاب ، وإذا زجر انزجر . وكان أويس القرنى إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة ، فيقول لهم : يا إخوتاه ، إن كان ولا بد فارمونى بالصغار حتى لاتدموا ساقى ، فتمنعونى عن الصلاة . وقالت امرأة لمالك بن دينار : يامرائى فقال لها : ياهذه . وجدت اسمى الذى أضله أهل البصرة . ولهم من أمثال هذا التسامح كثير ، فليت المعجبين بمدنية الغرب يقيسون ذلك بما هو حاصل الآن فى بلاد الغرب ، من حروب طاحنة ، لغير سبب إلا حب العدوان وعشق السلطان ، والميل إلى التحكم فى الرقاب فيعلموا الفرق بين روح الإسلام السامية وهذه المدنية العاتية الباغية .

(٢) المتصوف زاهد فى كل متع الحياة ، محتقر لرغباته الجسمية، لايستهويه أى جمال مادى ، ولا تهفو نفسه لشىء ، مما يتكالب عليه الناس ، فهو ينشد مع الزهاوى :

عظيم من استولى على الناس كلهم ولكن من استغنى عن الناس أعظم

ويؤمن بقول السلف : نعمة الله علينا فيما صرف عنا ، أكثر من نعمته

فيما صرف إلينا ، ويجزم بقول النبي ﷺ « إن الله يحمى عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه ، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه » واعلم أن المتصوف لا يرى زهده فى الدنيا شيئا يستحق الذكر ، لأنه يرى الدنيا لاشىء. ولذلك مر أبو يزيد على أبي موسى عبد الرحيم ، فوجده يعظ ، فقال له فى أى شىء تتكلم ؟ قال فى الزهد . قال فى أى شىء ؟ قال فى الدنيا ، فنفض يده وقال : ظننت أنه يتكلم فى شىء ! ؟ الدنيا لاشىء ، إيش يزهد فيها ؟ . وهم يشبهون الله بالملك ، والشيطان بالكلب على بابه ، والدنيا بلقمة خبز ، ويقولون من أراد الدخول على الملك فمنعه كلب على بابه ، فليلق إليه بلقمة الخبز ليشغله ، وينال القرب من الملك . ويشبهون المهتم بحاجات جسمه ، بدود القز ، لايزال ينسج على نفسه حيا ، ثم يروم الخروج فلا يستطيع . لذلك تجردوا عن غير الضرورى، وابتعدوا عن ذوى السلطان ، وجانبوا العظماء ، ونبذوا الجاه وأسباب الفخار . يقول الحسن البصرى فى وصفهم : « لا يفرحون بشىء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شىء منها أدبر ، وهى كانت فى أعينهم أهون من التراب ، كان أحدهم يعيش خمسين سنة ، لم يطوله ثوب، ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ولا أمر من فى بيته بصنع طعام » وهم يروضون أنفسهم على ترك المباح، ليكونوا على كفها عن الحرام أقدر . ولذلك يقول السرى : أنا منذ أربعين سنة تطالبنى نفسى أن أغمس خبزة فى دبس . وكان مالك بن دينار يطوف فى السوق ، فإذا رأى الشىء يشتهيه ، قال لنفسه اصبرى ، فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك على . وكانوا يشعرون بلذة عند كفهم النفس ، أكبر من لذة النوال ، قال جعفر ابن حميد : أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم . ولا بأس فى هذه المناسبة أن نذكر موقفا غريبا حصل لخليفة كبير مع متصوف جليل ، فأما الخليفة فهو الرشيد وأما المتصوف فهو سفيان الثورى ، وكانا

متآخيين قبل الخلافة ، ثم هجره سفيان بعدها ، فكتب الرشيد إليه كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان ، أما بعد : يا أخى قد علمت أن الله تبارك وتعالى واخى بين المؤمنين ، وجعل ذلك فيه وله ، واعلم أنى واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك ولم أقطع منها ودك ، وإنى منطو لك على أفضل المحبة والإرادة، ولولا هذه القلادة التى قلدنيها الله لأتيتك ولو حبوا، لما أجد لك فى قلبى من المحبة، واعلم يا أبا عبد الله أنه مابقى من إخوانى وإخوانك أحدإلا وقدزارنى وهنأنى وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية مافرحت به نفسى، وقرت به عينى ، وإنى استبطأتك فلم تأتنى ، وقد كتبت إليك كتابا مشوقا منى إليك شديدا ، وقد علمت يا أبا عبد الله ماجاء فى فضل المؤمن وزيارته ومواصلته ، فإذا ورد عليك كتابى فالعجل العجل .

هذا الكتاب الرقيق كان رده من سفيان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد الثورى ، إلى العبد المغرور بالآمال ، هرون الرشيد ، الذى سلب حلاوة الايمان ، أما بعد : فإنى قد كتبت إليك أعرفك أنى قد صرمت حبلك ، وقطعت ودك ، وقليت موضعك ، فإنك قد جعلتنى شاهدا عليك ، بإقرارك على نفسك فى كتابك ، بما هجمت به على بيت مال المسلمين ، فأنفقته فى غير حقه ، وأنفذته فى غير حكمه . . . فشد ياهرون مئزرك ، وأعد للمسألة جوابا، وللبلاء جلبابا ، فقد رزئت فى نفسك ، إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالما ، وللظالمين إماما ... واعلم أن هذا الأمر لو بقى لغيرك لم يصل إليك ، وهو صائر إلى غيرك ، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد ، فمنهم من تزود زادا نفعه ، ومنهم من خسر دنياه وآخرته ، وإنى أحسبك ياهرون ممن خسر دنياه وآخرته ، فإياك إياك

أن تكتب لى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه ، والسلام .

٣ — رياضة المتصوف لنفسه ترقى روحه ، فيستطيع أن يدرك مالا يدرك من غيره ، أو على حد تعبير الغزالى ، تنشأ له حاسة جديدة ، يرى بها مالا يرى ويَسمع مالا يُسمع ، وهذا الرأى وإن أنكره الماديون ، يتفق مع المذهب الروحانى الحديث . الذى أصبح معترفا به من كثير من الجامعات ، وله أساتذة ومعامل أبحاث رسمية ، فى كثير من الدول الراقية ، وقد اعترف به كثير من علماء المادة . الذين كانوا يحملون عليه ، ويهزءون به ، مثل وليم كروكس أحد الكاشفين عن الأشعة ورئيس مجمع تقدم العلوم البريطانى إذ يقول : حدثت حوادث روحية ، لم يعرفها أهل العلم ، ولكنها ثبتت لى بشهادة حواسى ، وبشهادة آلات ميكانيكيه دلت على حدوثها . حتى أنى صرت الآن ألمح شيئا من العلاقة بين هذه الحوادث الغريبة ، ونواميس الكون المعروفة ، فالشعور عن بعد (انتقال الأفكار من عقل إلى عقل بغير واسطة الحواس) أحسبه ناموسا من نواميس الكون العامة . كما أنى أعتقد أن المعرفة قد تصل إلى عقل الإنسان من غير أن تبلغ إليه بطرق المشاعر المعروفة » . وقد رد الغزالى قديما على بعض الماديين بقوله : « إنكارك لما شاهدناه، بماوراء الحواس الخمس ، كإنكار السفسطائية للحواس الخمس ، فإنهم يقولون : مانراه لانثق به، فلعلنا نراه فى المنام » على أن الأخبار المتواترة عن أكابر الصوفية فى هذه المسألة ، لاتترك عند المنصف مجالا للشك ، ولا سيما أن كثيرا منها روى على لسان أعلام فى الدين والخلق ، قال إبراهيم الخواص : « كنت مرة فى جبل اللكام ، فرأيت رمانا فاشتهيته ، فأخذت منه واحدة . فشققتها، فوجدتها حامضة فمضيت وتركتها ، فرأيت رجلا مطروحا وقد اجتمعت عليه الزنابير ، فقلت: السلام عليك ، فقال : وعليك السلام يا إبراهيم ، فقلت : كيف عرفتنى ؟ فقال: من عرف الله عز وجل لم يخف عليه شىء . فقلت أرى لك حالا مع الله عز وجل

فلو سألته أن يحميك من هذه الزنابير ! فقال : وأرى لك حالا مع الله تعالى، فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان ؟ فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه فى الآخرة، ولدغ الزنابير يجد ألمه فى الدنيا » أقول إن عندنا ذخيرة وافية من أمثال هذه الحكايات، لسلفنا الصالح، فهل آن لنا أن نحترمها، وأن نقوم ببحثها وإثباتها على ضوء العلم الحديث، إعلاء لماضى آبائنا، ورفعا لشأن مدنيتنا الروحية، التى تنصلنا منها، فلم نفز بسعادتها، ولم نظفر بالمدنية المادية، فخسرنا الأولى والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

٤ — المتصوف لا يؤمن بالمادة والتعدد، فهو روحانى المذهب، يدين بوحدة الوجود، ولا يعترف بأى قدرة لغيره، وهو لخصوبة خياله. وسمو روحه، يستطيع رؤية الوحدة التامة، والانسجام الكامل فى العالم جميعه، ويلمس الخالق فى المخلوق، لأنه فى وله دائم بالله، وتفان فى الذات العلية، وهذا هو مادعا الحلاج إلى قوله : « مافى الجبة إلا الله » فلا فرق عنده بين الفاعل والمفعول والمادة والروح، كالعاشق الوامق الذى يرى حبيبه فى طلعة البدر وهبة النسيم، وهزة الغصن، وتغريدة الطائر لأنه سكران بخمرة المحبة، التى شاد بها ابن الفارض، يرى العالم كله كلمات لله، ورموزا لقدرته، وأنوارا لشمس الهداية الكبرى، الكواكب ترمقه، والأشجار تخاطبه، وكل مافى الكون جنس واحد، بل شخص واحد، هو بضعة منه، ولذلك فهو يحبه ويخلص له جملة لا تفصيلا. قال الغزالى : « لما بزغ بدر السعادة، فى فلك الإرادة وظهرت شموس الوصل :

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتنى الأشواق مهلا فهــذه منازل من تهوى رويدك فانزل

(٥) المتصوف لا يقف عند مظاهر الأديان وشعائرها، بل يتغلغل فى الحقائق والغايات، ويرى فى جميع المظاهر الطبيعية صورا للعبادة الالهية التى

تهمه ، فالطير صافات مايمسكهن إلا الله ، والمياه منسابة فى مجاريها بأمر الله ، وكل شيء يسبح بحمده ، فالمتصوفة من جميع الملل والنحل يتقابلون جميعا عند الوحدة والتجرد والعقيدة الإسلامية فى الله تعالى ، ولا ينكر كل منهم على جنسه طقوسه ؛ لأنه كما قلنا يرى كل عبادة لله الأحد ، مهما تنوعت المعبودات عند الملل ، ولذلك يقول ابن العربى :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه دانى
فأصبح قلبى الآن كعبة طائف وديرا لرهبان ومعبد أوثان

(٦) علم المتصوف لايقاس بمنطقنا وحواسنا ، ولا ينبع منهما ، وذلك لأنه لايؤمن إلا بحواسه هو وقد ارتقت ويعتمد فى علمه على الاشراق ، والمنطق عنده خاص بعقولنا ، ووافٍ بغرضنا ، ولكنه غير وافٍ بغرضه ، ولا صالح لمعرفته ، إذ أن عقله الروحانى لايتأثر بعقولنا المادية « من حيث أنها منفعلة عن المادة » ولا يخضع للضوابط الحسية ، وهذا هو السر فى أن كثيرا من كبار العلماء والفلاسفة ، يطرحون كثيرا من علمهم الظاهر، وتجاربهم ومعتقداتهم بمجرد انتقالهم إلى مرتبة التصوف . فالغزالى يقول : « لم أزل فى عنفوان شبابى ، مذ راهقت البلوغ ، اقتحم لجة البحر العميق ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأهجم على كل مشكلة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ... حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت عنى العقائد المروية ، على قرب عهدمنى بالصبا وظهر لى أن العلم اليقين هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لايبقى معه ريب ... ثم فتشت عن علومى ، فوجدت نفسى عاطلا عن علم موصوف بهذه الصفة إلا فى الحسيات والضروريات ... فأقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات ، فلم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات ، وأخذ يتسع الشك فيها ... أقمت سنين لاشغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ... وانكشف لى فى

أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها ، والقدر الذى ينبغى أن نذكره ، أنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكما ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا » .

(٧) التصوف آخر مرحلة من مراحل الفلسفة وإن شئت فقل إنه شيخوخة الفلسفة ، كما أنه أعلى مراتب التدين والعبادة ؛ ولذلك نرى المتصوفين قسمين لا ثالث لهما . أما الأول فهم فلاسفة روحانيون ارتقوا بعد طول النظر إلى التصوف ، ومن هؤلاء الفارابى الزاهد ، والغزالى العالم السائح ، وقد رمز إليهم نيتشه بقوله « سأشرح لكم تطور العقل فى مراحله الثلاثة ، فأنبئكم كيف استحال العقل جملا ، وكيف استحال الجمل أسدا ، وكيف تحول الأسد أخيرا فصار ولدا ... ولماذا يجب أن يتحول الأسد المكتسح إلى طفل ؟ ذلك لأن الطفل طهر ونسيان وتجديد ولعب ، وعجلة تدور على ذاتها ، فهو حركة البداية، وعقيدة مقدسة » أراد بتحول العقل إلى جمل ، كثرة ما يحمله العقل الباحث وراء الحقيقة من النظريات ، التى تنقض ظهره ، كما ينقض الوزر الثقيل ظهر الجمل ، وبتحول الجمل إلى أسد ، أن العقل بعد طول الجهد من غير طائل، يقف من هذه المعارف المتناقضة موقف الهجوم عليها وتمزيقها ، كما يفعل الأسد فى فريسته ، وبتحول الأسد إلى ولد ، طرح هذه النظريات ، ومقابلة الحقائق بالفطرة الأولى ، التى فطر عليها ، والسمو إلى مرتبة الإشراقات الإفلاطونية ، وهذا هو التصوف الفلسفى .

وأما القسم الثانى من المتصوفة ، فهم العباد المؤمنون ، الذين وصلوا إلى مقام المتصوفين بالعبادة والاقتداء ، لا بالنظر والبحث ، إذ منحوا بدل العلم

الواسع إخلاصا للعقيدة، وصفاء في القلب، حتى أشرقت عليهم الأنوار الإلهية، وتفجرت فيهم ينابيع الحكمة، ومن هؤلاء معظم المتصوفة من المسلمين، وإمامهم النبي ﷺ، وأول رتبة منهم الصحابة رضوان الله عليهم «فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به. ونذكر هنا أن التصوف عن طريق التدين ليس خاصا بالدين الإسلامي فحسب، فقد يصل إليه حتى الوثنيون، كما قد ينحط المسلم الجاهل إلى مرتبة الوثني مع توحيده اللفظي، فالنسبية التي قال بها إينشتين تسرى على العقائد كما تسرى على الطبيعيات، وكل ماهنالك أن طريقة الاسلام أصلح الطرائق وآمنها وأوضحها وأقربها إلى التصوف فلا يحتاج سالكها بحق إلى مشقات كثيرة، قبل الوصول إلى التصوف، لأنها طريقة التوحيد المطلق، والتنزيه التام، وما التصوف إلا امتداد لها، ولعل ذلك يفسر كثرة المتصوفة من المسلمين، فالمسلم يسير إلى التصوف في سبيل قد أوضحته الصُّوى وأنارته السرُج، فهو آمِن في البداية، متحقق من النهاية، أما غيره فلا يصل إلى الحقيقة إلا بعد رحمة الله، واقتحام أهوال جسام. وهنالك يجد نفسه قد وصل إلى ماوصل إليه المسلم من جمال التنزيه وكمال المحبة والتوحيد. وهناك طائفة تعتقد أن التصوف هو لبس المرقعات، والهذيان، وأولئك هم المخدوعون في أنفسهم لذويهم، وقد شبههم الغزالي بعجوز شمطاء، تلبس الدرع واللأمة وتحمل السيف، وتظن أنها بذلك قد أصبحت من الأبطال المرابطين، ناسية جسمها الهزيل، وأعضاءها الواهية.

٨ - كل من انتهى إلى هذه المرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى، فيحب الموت ولا يكرهه، إلا من حيث انتظاره زيادة استكمال في المعرفة، فإن المعرفة كالبذر، وبحر المعرفة لاساحل له، فالاحاطة بكنه جلال الله محال، فكلما كثرت المعرفة بالله، وبصفاته وأفعاله، وبأسرار مملكته - كثر النعيم

فى الآخرة ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن ، كثر الزرع وحسن . ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا إذا زرع فى صعيد القلب فى الدنيا ، ولاحصاد إلا فى الآخرة ، فمن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفا فى المعرفة ، لبلوغه منتهى ما يُسِّرَ له . ومن كره الموت منهم كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة بطول العمر ، فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة ، وتعليل رغبة المتصوف فى الموت أنه عاشق ، وليس التذاذ العاشق برؤية المعشوق فى ظلمة أو من وراء حجاب ، كالتذاذه بإدراكه على قرب فى كمال الضوء ، وليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق ، كالتذاذ الخائف أو المريض أو المشغول — والصوفى يعلم أنه مادام فى الدنيا فهو فى ستر البدن ولدغ عقارب الشهوات . لا يخلو منها ألبتة ، وهذه ضرورة دائمة فى هذه الحياة الفانية « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

(٩) كثير من حالات التصوف ، يعقب الحياة المادية المطلقة ، فهو تصوف يصل إليه المرء بعد التجربة ، والتجوال فى الشهوات الحسية ، ولعل السبب فى هذا الانتقال (أو بتعبير أدق الانقلاب) احتقار الشهوة الحسية لسرعة زوال لذتها ، واستحالة التمتع بصورتها الذهنية ، ولأنها كثيرا ماتكون مصحوبة بالآلام ، ولأن النفس كما يقول عمر بن عبد العزيز تواقة ، إذا نالت الدنيا مالت إلى الآخرة ، ولأن رد الفعل ناموس من نواميس الكون المضبوطة ، ومن أمثال هؤلاء عمر بن عبد العزيز وأبو العتاهية .

وهذه الحالة من التصوف غير مقصورة على الأفراد ، فهى سارية أيضا على الأمم ، فكل أمة لها عهد شباب وحيوية مادية ، ثم بحسب العلل السابقة تنقلب إلى دور تصوف عام ، يحط من عظمتها المادية ، ويجعل السبق لغيرها من الأمم ، ويهبط بمرتبتها فى مضمار الحياة ، ويحكم عليها بالانحطاط أمام ناموس تنازع البقاء . كما حصل للمصريين بعد حضارتهم الفرعونية ، وللرومان

بعد دخولهم فى المسيحية ، وكما سيحصل للأمم الأوربية عقب هذه الحضارة وعند شيوختها . ومدة تصوف الأمم مناسب لمدة نشاطها الحيوى السابق ، فتصوف المصريين استمر أكثر من تصوف الروم ، لأن حضارتهم القديمة عمرت أكثر من دولة الرومان ، فشيخوخة الأمة مناسبة لشبابها .

هذه الكلمة فى التصوف كنت أكتبها وأنا أعلم بأن كثيرا من القراء سيرونها غير مطابقة لمقتضى حال هذه الأيام ، فأين التصوف من حرب الجبابرة وهذه الصفات الخاصة بالمتصوفة قد يضحك منها الآن أكثر الناس، ويعدونها تنطعا وغفلة . لأن هذا العصر الذى نعيش فيه ، قد غلبت عليه المادة ، بحيث يستحيل على المرء أن يتصور متصوفا عازفا عن الدنيا ؛ فقد زين للناس حب الشهوات الفانية ، التى هى كدود المقابر يأكل بعضها بعضا . وذلك راجع الى أن جسم الإنسان قد تضخم بالمخترعات الحديثة ، فالمذياع قد مد فى الأذن ، والسيارة أوسعت الخطو ، والمدفع قوى الساعدين ، والمنظار مد فى البصر ... الخ وهذا التضخم الجسمى لم يتبعه تضخم فى الروح ، فقل أثر الروح فى الجسم لأنها وزعت على مساحة أكبر من طاقتها ، كما يقل أثر مقدار محدود من الماء سقيت به أرض فوق مقدرته ، فإنه لاشك يقل أثره فى الانبات .

فيأيها الساخرون من التصوف والمتصوفين ، إن الشرق لن يستطيع أن يسبق الغرب فى مخترعاته وصناعاته ، أو يجاريه فيها ، ولن نستطيع التخلص من نير سلطانه المادى ، إلا إذا غزوناه بمبادئنا الروحية ، وإن فى تاريخ تنازع الحضارتين الشرقية والغربية منذ أقدم العصور لذكرى للذاكرين .

عطية الشيخ

سـيدنا . . . .

للأستاذ محمد سعيد العريان

كنا فى مجلسنا من شرفة النادى حين لمحنا صديقنا الأستاذ ع مفتش التعليم الأولى قادما من بعيد، يتوكأ على عصاه وهو يميل يمنة ويسرة، ويطول فى مشيته ويتقاصر، إذ كان فى رجله عَرَج قديم من إلتواء فى إحدى قدميه، فلما بلغ حيث كنا جالسين ألقى إلينا التحية ثم اتخذ له مقعدا على مقربة

ومضينا فيما كنا من الحديث، نَتَسرَّح من فن إلى فن، وشئون الحديث تتداعى معنى إلى معنى وحادثة إلى حادثة، وقال واحد من السامرين: « رحم الله سيدنا . . . . ! » فلم يكد يُتم عبارته حتى اعتدل المفتش فى مجلسه واختلجت شفتاه فى تأثر وانفعال، ثم اهتبل الحديث يقول:

« سيدنا ؟ . . . . . . رحمه الله وغفر له ! ».

وتوجَّهْنا بأبصارنا إلى الأستاذ ع، وقد أدركنا من حاله أن خاطرا من ذكرياته قد أَلمَّ به الساعة، وأن شيئا ذا بال فى كلمة « سيدنا » قد أيقظ نفسه وهاج عاطفته، فرغبنا إليه فى أن يقص قصته، فمضى يقول:

٭٭٭

كان سيدنا الشيخ عبد الجليل له فى القرية مكانٌ واحترام، لا يبلغ منزلته أحدٌ من أهل القرية جميعا. ولا عجب، فهو شيخ القرية وعالِمُها ومعلِّم بنيها، يستفتونه فى أمر دينهم، ويستشيرونه فى شئون دنياهم، ومامنهم أحد إلا له عليه يد، ولا ذو حاجة إلا كانت حاجته عنده، ولا ذات أمل إلا بلغتْ مأمولَها برُقْية من رُقَيَ الشيخ أو تعويذة من تعاويذه.

وكان له « كُتّـاب » يختلف إليه طائفة غير قليلة من صبيان القرية يحفظون القرآن ويتعلمون القراءة والكتابة ، ويقصد اليه ذوو الحاجات يطلبون مشورته أو يلتمسون بركاته .

وكنت — ككلِّ فتى فى القرية — أسمع باسم الشيخ وأضمر له فى نفسى من المحبة والاحترام مثلَ مايضمر له الجميع ، وإن لم يتهيأ لى مرة أن أراه رأى العين . وذات صباح صحبنى والدى إلى مكتب الشيخ عبد الجليل ليكل إليه تعليمى . وكنت يومئذ فى التاسعة من عمرى وقد شدوت من العلم شيئا فى مدرسة أولية بالمدينة حيث كنت أقيم عند خالى ، ومضيت خلف أبى على طول الطريق لا أفكر إلا فى السعادة التى تنتظرنى ساعة أجلس بين يدى الشيخ المبارك أنظر إليه وأسمع عنه وأحفظ من علمه .

ورأيت الشيخ يومئذ لأول مرة . لقد بدا لى أصغرَ سنا مما كنت أتصوره فى خيالى ، وأحسبه كان صغيرا حقا ، فإنه على ذيوع صيته وامتداد شهرته فى القرية ، لم يكن قد جاوز الأربعين بعد ، عرفتُ ذلك من لحيته السوداء وشاربه المحفوف . وكان فى وجهه ذبول وعليه مسحة من صور الزُّهاد ، أنبأتنى بذلك عيناه الناظرتان أبداً إلى تحت ، ولكنه على ما كان يبدو فى وجهه وفى عينيه من التواضع والانكسار ، لم يكد يرى أبى مقبلا عليه بالتحية ، حتى مدّ له يمناه ، فطاطأ أبى رأسه ومال على يده فقبّلها ! حينئذ لم أملك إلا أن أفعل مثله ، أنا الذى لم يُقبّل يداً قط ، حتى يَدَى أبيه وأمه !

ومنذ ذلك اليوم ، صرت تلميذا من تلاميذ سيدنا الشيخ عبد الجليل ، على أنى لم أجد فى نفسى لذلك من السعادة ما كنت أتوقع ، فما هى إلا ساعة أو ساعات فى مكتب سيدنا ، حتى ضاقت نفسى وأحسست مثلَ إحساس السجين يحاول أن يفر من حُرّاسه !

كان الشيخ جالسا في صدر المكان على فروة قديمة ناحلة ، وظهره مُسند

إلى وسادة حائلة اللون ، وبين يديه قميص يرقعه ، وعن يمينه دلو فيها جدائل من خوص أخضر ؛ وتحت رجليه عصا غليظة يبدو طرفاها من تحت الفروة التي يفترشها ، وأمامه صبي من صبيان المكتب متربع في مثل جلسة المعبود « بُوذا » وهو يهتز بين يديه في حركة رتيبة ، ويقرأ شيئا من غَيْبِ صدره في نغمة واحدة ليس لها لون ولا فيها معنى ، وسيدُنا مكبٌّ على عمله يرقع قميصه وهو يستمع إلى الصبي ، لايزيد على أن يرفع عينيه إليه بين لحظة وأخرى . وفي المكتب عشرات من مثل هذا الصبي ، قد تربعوا أفرادا وأزواجا على حصير كبير يغطي أرض الغرفة جميعا ، وبين أيديهم كتب وألواح ، يقرءون مما فيها حينا ، ويتبادلون الحديث من ورائها في نظرات صامتة حينا آخر ، والشيخ يخيط ، أو يجدل ضفائر الخوص ، والصبي بين يديه يقرأ ...

وكنت غارقا في تأملاتي ، لا أكلم أحدا ولا يكلمني أحد ، لا لحظةَ عين ولا بنتَ شفة ، حين دوّى صوتُ سيدنا غاضبا يتوعد ... ومال على فخذ الصبي أمامه يقرصه بغيظ ، والصبي يتلوى من الألم لا يكاد يُسْمَعُ صوتُه من خوف سيدنا !

وكان هذا أولَ الشر ، ثم نهض الفتى الذي كان بين يدي سيدنا وحل محله صبي آخر ؛ ومضت فترة قبل أن يدوي صوت الشيخ في أذني مرة ثانية وهو يميل على فخذ الغلام يقرصه ، ولم يحتمل الفتى من الألم ما احتمل الصبي الذي سبقه ، فنَدَّتْ من بين شفتيه صرخة ألم ! حينئذ هاجت هائجة الشيخ ، فوثب إليه « العريف » يعاونه على تأديب الصبي ، وفي أسرع من خفْقة الطرْف كان الصبي مجدولا على الأرض ، معلقا من رجليه في خشبة غليظة يشدهما إليهما حبلٌ مفتول ، والشيخُ يهوى على رجلي الغلام بالعصا في قسوة وعنف وهو تحت رحمته يصرخ ويتلوى ويعض على شفتيه من ألم الضرب !

أحسستِ قلبي في تلك اللحظة يكاد يثب من موضعه فَرَقا وخشية ،

فولّيت بصرى إلى الناحية الأخرى ، فإذا صبيان المكتب جميعا منكبون على ألواحهم ودفاترهم فى خوف وفزع ، وقد زادت هزاتهم وتتابعت فى سرعة كأنما يحركهم محركٌ غيرُ منظور . ولم ألبث أنا نفسى أن رأيتُنى أهتز مثل هزاتهم وأحرك شفتىّ وليس بين يدىّ لوح ولا كتاب كأنما هى تميمة أقرؤها لتردّ عنى الشرَّ الذى أخاف !

كانت هذه هى عقوبةَ كل صبى من صبيان المكتب لا يحفظ درسه ، سواءً فى ذلك ابنُ العمدة وابنُ الأجير ، ومع ذلك لم يحاول صبى واحد أن يتمرد على سيدنا أو يشق عصا الطاعة أو يجرّب الإفلاتَ من عقابه ، وأنىَّ لهم بذلك وإن آباءهم وأمهاتهم جميعا ليثقون بالشيخ ثقة عمياء ، فلا يَتَسمَّحون لواحد من بينهم أن يشكو أو يتألم مما نزل به ، مؤمنين بأن عَصَا سيدنا من الجنة ! .

منذ تلك اللحظة ، تبدلت صورة الشيخ فى نفسى فعاد أبغضَ شىء إلىّ حتى لو استطعت أن أنتقم منه لهؤلاء الصبيان وأفرَّ بنفسى لفعلت . ومالى أخفى عليكم ؟ لقد طالما حاولتُ من بعدُ أن أسىء إلى سيدنا كلما أمكنتنى الفرصة فتارة أخالفه إلى الأقلام التى تعب فى بَرْيها ساعةً من نهاره فأقصفها ، لا أدع قلما منها له سن تصلح للكتابة ، وتارة أعابثه بسرقة علبة السعوط فأستبدل بما فيها ترابا وحصى ، وتارات أخرى ... وما كان سيدُنا يعلم من يفعل ذلك ، وإن كان على يقين بأن صبيان المكتب جميعا غرماؤه ... !

***

قضيتُ فى مكتب الشيخ عبد الجليل شهرا وبعض شهر ، لم ينلنى فيها عقابٌ من عقابه ، حتى جاء اليوم المشئوم !

كان علىّ فى ذلك اليوم أن أحفظ جزءاً من القرآن الكريم ، فلم تتهيأ لى الفرصة أن أفعل ، وحلّ ميعادى ، فجلست بين يدى سيدنا وأنا أرتجف خوفا

من عقابه. فسألته المعذرةَ فى كلمات خافتة وصوت يرتعش، وبدا لى كأن الشيخ قد قبل عذرى، حين اكتفى بقرصة مؤلمة فى فخذى، ونهضتُ من مجلسه وأنا لا أكاد أصدق بالنجاة، فقد كان أخوفَ ما أخافه أن يجدلنى على الأرض ويهوى على رجلىّ بعصاه!

ومضت ساعة قبل أن يحل ميعاد صبى من رفقائى كان عليه وحده تبعةُ تقصيرى فى درس اليوم؛ إذ دعانى فى عصر اليوم الماضى لصحبته إلى الحقل لنصيد العصافير، فما عُدنا إلا وقد أرخى الليل سدوله فلم نتهيأ لدرس الغد.

وجلس الفتى بين يدى سيدنا مضطربا منتقع الوجه لا يكاد يُبين، ونظرتُ من خلف اللوح إلى سيدنا فاذا هو فى هيئة الغضب، ثم لم يلبث أن سمعتُه يصيح بالصبى صيحةً عرفتُ ماوراءها، فأخذت أعالج خوفى بهزات سريعة كأنى أقرأ، وأذنى إلى سيدنا؛ وطَرَق مسمعى قوله: «وأين كنتما أمس؟ تصيدان العصافير ...؟»

ونادى عريفَه، فاسرع بأداته إليه، ونادانى ... ...

وقبل أن أرى صاحبى مجدولا على الأرض، معلّقا من رجليه فى الخشبة كانت رجلاى تُسرعان بى إلى الباب. ووقف العريف فى وجهى، فلم أجد أمامى إلا النافذة، فاستجمعت قوتى ووثَبْت!

لم أدر بعد ذلك شيئا مما كان إلا وأنا راقد فى فراشى، ورجلى مشدودة إلى جبيرة بأربطة من نسيج أبيض، وأمى إلى جانب رأسى تبكى فى صمت!

لقد أفلتُّ من عصا سيدنا، ولكنى دفعت ثمن ذلك غاليا فانكسرتْ رجلى، ومن ذلك اليوم لا أمشى إلا مستندا على عكاز.

٭٭٭

وتأوه المفتش وهو يعبث فى الأرض بعصاه، وغرق السامرون فى صمت، ثم عاد المفتش إلى حديثه.

لم يكن لى طبعا أن أعود إلى كتاب سيدنا بعد الذى كان ، فدخلت المدرسة الأولية بالمدينة ، وانقطعتْ صلتى بالشيخ وكتّابه وعريفه وصبيانه ، ولكن ذكراه لم تفارقنى قط ، ذكرى مؤلمة مرة ، ومن أين لى أن أنسى وهذه رجلى وتلك عكازتى لا تفارقنى ؟

وتأرّثَ الحقد فى قلبى من يومئذ لسيدنا ، فما كان يخطر ببالى مرة إلا ثارت فى نفسى شياطينُ الشر . . !

وأتممت التعليم الابتدائى والثانوى ، وكنت أقضى الصيف من كل عام فى القرية ، فكان لا بد لى أن ألقى سيدنا أو تلميذا من تلاميذه عابرا فى الطريق ، فأطأطىء رأسى وأوفض فى السير خشية أن تنزو بى نازية من الشر فأهوى بعصاى على رأسه فأحطمه !

تُرى أكان ذلك شعورى وحدى ، أم هو شعور الكافّة من تلاميذه الذين ذاقوا من قساوته وعنفه ما لا طاقة لأحد باحتماله ؟ . . ولكنى أكاد أعرف تلاميذه جميعا . وهل فى القرية كلها رجل واحد لم يكن من تلاميذ سيدنا فى يوم ما ؟ وإنهم مع ذلك ليوقرونه ويرفعون مكانه ، وإن منهم لرجالا فى مناصب رفيعة ، وإن لى منهم لأصدقاء وزملاء !

وأتممت دراستى العالية ، لأكون فى أول عملى مدرسا فى مدرسة من مدارس البنات الابتدائية ، تتبعها روضة من رياض الأطفال ، تضم شتيتا من الصبيان والبنات بين الخامسة والثامنة ، تعلمهم وتهذبهم على نمط من التربية لم يكن معروفا لعهدنا فى مثل هذه السن . .

وكنتُ أغدو وأروح كل يوم من عملى على هذه الروضة الضاحكة ، فيسرنى مرأى هؤلاء الأطفال الصغار فى ثيابهم المتشابهة ، بين بنين وبنات ، يلعبون ويمرحون فى بسيط من الأرض تحت رعاية معلّمة عَطُوف ، لها قلبُ الأم وحرصُ المربّية ، تأخذهم باللين والرفق فى التعليم والمعاملة ،

وتشاركهم فى اللهو ، وتخاطرهم فى اللعب ، وتنفذ بكل أولئك إلى قلوبهم وعقولهم فتنشئهم نشأة رقيقة ، وتصقل وجدانهم وعواطفهم ، وتطبعهم من لدن نشأتهم على الخير والمحبة والسلام !

وعلى قدر ما كان يسرنى مرأى هؤلاء الأطفال ، كان يتولانى شعور بالأسف على أنى لست صبيا . . !

وكان أدنى هؤلاء الأطفالِ العِزازِ منزلةً إلى قلبى ، هو الطفل « فؤاد » فإنى لأعرفه ويعرفنى ، وبينى وبين أبيه صلة من الود ، إذ كانت نشأتنا فى بيتين متجاورين من القرية التى فارقناها معا منذ آثرنا أن نكون فى خدمة الحكومة ، وكان أبوه زميلى فى كتاب سيدنا ولكنه لم يفارقه حتى أتم القرآن !

وكان فؤاد يلقانى صباحَ كلِّ يوم فيحيينى تحية طِفْلِيَّةً رقيقة ، ويودعنى فى العصر بمثلها ، فلا أزال من تحيته بين الصباح والمساء فى نشوة وطرب . وكثيرا ما كانت تحضرنى إلى جانب صورته — صورةُ أبيه فى صباه ، جالسا على الحصير من كتاب سيدنا ، وبين يديه لوحه وكتابه ، وهو يهتز هزات متوالية ويدور بعينيه بين الصبيان يبادلهم الحديثَ غمزات ونظرات . . .

واستمر المفتش فى حديثه يقول :

هل كان هذا الطفل ومثله معه من أطفال الروضة ، إلا لعنةً حية تذكرنى ما كان من جناية سيدنا عليّ فى صباى وتُوَرِّثُ البغضاء فى قلبى !

. . . . . وتنقلت فى مدارس عدة ، حتى بلغت أن أكون مفتشا . . . . . .

وعلى أنى كنت أعلم مايلقاه المفتشون من المشقة والجهد ، وما يتحملون من النصب حين تضطرهم تكاليف الوظيفة أن يبيتوا ليالى عدة بعيدين عن أسرهم وأولادهم متنقلين بين القرى والدساكر — فإنى كنت جِدَّ مغتبط بما أسند إلي من عمل ، لازهوا بالمنصب ، ولا رغبة فى الجاه ، ولكنها كانت أمنية

قديمة ليكون لى منها فرصةٌ لتطهير القرى من مثل كتاب سيدنا الشيخ عبد الجليل .

أ كان ذلك منى عن إخلاص فى العمل وحرص على مصلحة التعليم ، أم كان إيحاء من الواعية الباطنة التى تختزن الذكريات إلى إبانها ، تحاول أن تخدعنى به عن حقيقة الشعور الذى يضطرم فى نفسى بالحقد والبغضاء لسيدنا ، فتدفعنى إلى محاولة الثأر والانتقام وهى تسمِّى ذلك إخلاصا فى العمل وحرصا على مصلحة التعليم . . . ؟

لست أدرى ، ولكن الذى كنت أوقنه يقينا لاشبهة فيه ، هو أنى كنت فَرِحا بذلك ، طيِّبَ النفس به ، فما كان لى من بعدُ إلا أمنية واحدة ، هى أن يكون كتّاب الشيخ عبد الجليل فى دائرة عملى !

ومضت سنوات قبل أن تتحقق لى هذه الأمنية !

. . . . ورسمتُ خطتى وحددت نهجى ، ودنا اليوم الذى اخترته ميعادًا لزيارة الكتاب الذى دخلته أول يوم تَرِفُّ على شفتىّ بسمة الرضا والسعادة وفارقتهُ يوم فارقتهُ محمولا على أكتاف الناس غائبا عن الوعى مما نالنى من خوف سيدنا ، ثم لم أمش بعدها إلا متوكئا على عكاز ! وصحبتنى أبالسةُ الشر يومين كاملين فى يقظتى وفى منامى قبل أن يحين موعد هذه الزيارة ، فما انتفعت فيهما بنفسى ولا انتفع أحد .

وأشرق صبح اليوم الموعود ، فبكرت إلى ماعزمت عليه ، يصحبنى تابع يحمل حقيبتى ، ويصحبنى شيطانى !

وكان بينى وبين كتاب سيدنا خطوات معدودة حين صكَّ مسمعى صراخ! ودنا منى الصوت رويدا رويدا ، وسمعتُ الناعى يَنْعَى إلى أهل القرية سيدنا الشيخ عبد الجليل !

ما أعجب القدر !

وظللت فى القرية طول اليوم حتى أمشى فى جنازة سيدنا . . . وما كان لى أن أفعل غير ذلك . . . . وأعظم الناس هذا الوفاء ، إذ حسبونى لم أقدم إلا لذاك ، بقدر ماصغرت نفسى فى عينى !

ومشت القرية كلها فى جنازة الشيخ ، لم يتخلف منهم أحد ، وشيّعوه محزونين وعادوا يعددون مآثره لايذكره أحدٌ منهم بِشرّ !

وعدت إلى مكتبى فى المدينة مبكرا ، فلم ألق أحدا من الزملاء أحدثه بحديثى ويحدثنى ؛ وجلست وحدى أنشر الذكريات وأطويها ، وفى نفسى ثورة تضطرم ، وفى رأسى غليان ، لم يكن بى فى تلك اللحظة حقدٌ على أحد ، لا ، ولا كانت لى أمنية أحرص عليها ، ولكنى إلى ذلك كنت فى حيرة من أمرى ، أسائل نفسى . أكنت على حق فى حقدى على سيدنا وما أضمر له من البغضاء ؟ وهل كان من السوء بحيث يحق لى أن أحمل له ما كنت أحمل من الكُرْهِ والموجدة ؟

لكم كان لسيدنا على هذه القرية من الأيادى ! . . . لقد كان قاسيا ، جبارا ، عنيفا ، ولكنه مع ذلك كان رجلا للناس لا لنفسه ، وما نالته فى يوم ظِنّة ولا تعلقت به تهمة ، فما يذكره أحد من القرية إلا بمعروف أدّاه ، أو جميل أسداه ؛ سواء فى ذلك أهل العلم من تلاميذه وأهل التوكل والاعتماد !

. . . . فإنى لغارقٌ فى خواطرى وذكرياتى ، إذ دخل إلىّ صديق من أصدقائى ينقل إلى النبأ المفجع :

« فؤاد ، ابن صديقنا فلان . . . لقد تعجّل آخرته ، فأزهق نفسه لأن أباه أغلظ له فى النصح أن يكون رجلا ، ودعا حلاقا فقص له شعره . . . . وعَزّ على الفتى مافعل أبوه ، فاغلق عليه غرفته فأحرق نفسه .... هذه هى التربية الناعمة التى نحاول بها تنشئة الجيل الجديد ليحمل تبعات الغد ....! »

فؤاد ! واحزناه !

وحضرتنى فى تلك اللحظة صورةُ فؤاد الطفل الضاحك يلقانى كلَّ يوم بالتحية فى غدوِّى ورواحى على روضة الأطفال ، ثم صورة فؤاد الصبي العابث يمزح مع أبيه فى مجلس أصحابه وينضح وجهه بالماء يوهمه أنه عطر ، ثم صورة فؤاد الفتى الخليع يمشى فى الشوارع يتثنى ويتخايل بزينته ، وعيناه إلى كل غادية ورائحة ، لا يعنيه من أمر شىء إلا ثيابه وزينته وشعره المرسل المصقول بالدهان والعطور كما تصقله الفتاة الناعمة ، ثم صورةُ فؤاد الصريع مُسَجى فى أكفانه ، ومُشَيِّعُ جنازته أولُ من يلعنه .

وسكت صديق وسكت ، ولكن روح سيدنا الشيخ عبد الجليل ظلت تتحدث حديثها فى نفسى . .

ولأول مرة منذ بضع وثلاثين سنة ، شعرتُ بأن سيدنا كان هبةَ الله لهذه القرية التى أخلص لها الحبَّ ووقف عليها جهده حتى قبضه الله اليه ، فهتفت فى تأثر .

« سيدنا . . . ، رحمه الله وغفر له ! » .

محمد سعيد العريان

ديوان الأطفال :

العـــــــدالة

للأستاذ محمد عبد المنعم سالم

فتحى (يداعب قطه سمير) :

قطى الصغيرُ اسمه سميـر
لعبـه لطيف يجلب السرور
لونه جميـل يشرح الصدور
قطى الصغير ماله نظير

رضوان (يفتح الباب بشدة ويدخل عليه قائلا) :

فتحى فتحى قطك أينا ؟
سرق الأكل ومضى عنا

فتحى (بشدة) :

أنت ظـلوم ما أقساكا !
قطى عندى ها هو ذاكا !

رضوان (يبحث عن القط) :

أين القط أين القط ؟

فتحى :

أذهب عنـه يا رضوان
لا تظلمـه هو حيوان

رضوان :

إن لم يحضر ويطع أمري
فسأشكوه لأبي بكر

فتحي :

أذهب واشك هو لم يفعل
وأبو بكر منا أعدل

رضوان (وقد ذهب إلى القاضي) :

يامنصف المظلوم بالعدل في الأحكام
قد جاء قطٌّ جاري في حالك الظلام
فأكل الطعاما ولم يقف أمامي
فاقبل رجائي فيه وسُقه للإعدام

القاضي (ملتفتا إلى رضوان) :

أذهب وجئني في غد بشاهد وشاهد

رضوان (وقد أتى بالشاهدين) :

عندي فأر وغراب لم يعرفا إلا الصواب

القاضي : أحضرهما أحضرهما عساهما أن يعلما

القاضي (للغراب) :

ما اسم الفتى الزنجيّ

الغراب : اسمي أبو عليّ

أنا غراب نوحي ذو منطق فصيح
ووالدي معروف يعرفه الألوف
أتيت من بلادي للعلم والجهاد
وخدمة الأنام حتم على الكرام

القاضى :

متى ولدت يابن نوح

الغراب : ولدت فى عهد المسيح

القاضى : ماذا رأيت ياغـــراب وأى شىء فى الجراب

الغراب :

قد مر قط أســود وشعره مُـلَبَّـدُ

نظرته فى الصبح يدب عند فتحى

فأكل الطعاما وطيرَّ الحماما

وكان كالغضنفرِ فى أكله للسكر

القاضى (ملتفتا إلى الفأر والفأر حامل لوحه فى يده) تـكلَّمْ :

الفأر : إننى فار ولى فى الدار أجحار

ولدت اليوم فى الصبح وصرت أخط فى لوحى

رأيت القط فى الجبل يطوف ببرمة العسل

ويرفعها ويلقيها ويأكل مايرى فيها

القاضى (ملتفتا إلى القط)

ماذا ترى ياقط

القط : قد كذبوا وشطوا

وذلك المحامى يخبر عن كلامى

المحامى (بحماس) :

يأيهـــا الحضور هذا الـكلام زور

وتلكم الشهادة مـكذوبة ياسادة

من فى الصباح ولدا كيف يرى مابعـــدا

وكيف عاش النوحى من زمن المسيح

والقط كان في الجبل فكيف عندنا دخل
وأى قط يا تُرى يأكل يوما سكرا
والقط للفــيران يجهر بالعدوان
وخصمه اللــدود منها هو الشهيد

القاضى (ينطق بالحكم) :

أسِئْتَ ياسمــيرُ وإننى بصيرُ
لهــذه الإساءة حكمت بالبراءة

القط (مسرورا) :

نَجَوْ نَجَوْ نجوت نجوت من بلائى
بالصدق والأمانة والعــدل فى القضاء

الجميع (مبتهجين يحيون سمير) :

قطنا سمــيرْ ماله نظيرْ
لعبه جميــلْ يجلب السرورْ

قطنا سمــيرْ خادم أمينْ
نحن لانراهْ يقرب الصحونْ

وْهو للفــيرانْ ظاهر العدوانْ
كلما رآهــا ثار كالبركانْ

عشت ياسمــير فى مدى الدهور
عشت ياسمــير ساكنَ القصور

محمد عبد المنعم سالم
مدرس بمدرسة اسماعيل للبنات بالإسكندرية

من القصص التمثيلي :

قصة الأرنب والأسد

للأستاذ محمد يوسف المحجوب

الأسد (يختال فى الغاب) :ـ

أنا الجبار ذو البأس أمير الوحش والغاب
أمزق كل مفترس وأفتك غير هياب

(ثم يمضى)

الذئب (إلى جماعة الوحش) :ـ

أرى المغرور يظلمنا بلا سبب ولا ذنب
نصا فيه ويقتلنا فليس له سوى الحرب

الثعلب (ناصحا) :ـ

ضـلال أن نهاجمه فيفقد بعضنا بعضا
ورأيى أن نسالمه على زاد به يرضى

الذئب (مفكراً) :ـ

صواب رأيك العالى ولكن : من يفاتحه ؟

الثعلب :ـ

سأذهب راضى البال إليه عسى أصالحه

(ثم ينصرف إلى عرين الأسد)

الثعلب للأسد :ـ

(مولاى) عشت عزيزاً فينا على الأيام
نريد ـ مولاى ـ ألا تسعى لجلب الطعام
وكل يوم ستلقى طعامكم فى انتظام
يأتيك عنا جميعا فاهدأ وعش فى سلام

الأسد :ـ

رضيت ما قلت عهداً والويل أن تكذبونى
أنا القوى فخافوا بأسى ولا تغضبونى

(بعد أيام يأتى الدور على جماعة الأرانب)

الذئب (لجماعة الوحش) :ـ

الدور (ياقومى) على جماعة الأرانب

أرنب (تتطوع) :ـ

هيا ابعثوا بى عاجلا حتى أؤدى واجبى

جماعة الوحش (تودع الأرنب) :ـ

كما أردت فاذهبى وقيت شر العطب
وقيت شر حاسد وعشت أوفى أرنب

الأرنب للأسد (وقد أبطأت حتى فات موعد طعامه) :ـ

سيد الغاب أماناً عشت للحق نصيره
أرسل القوم طعاماً « أرنبا » مثلى صغيره
فتبدى ليث سوء هاجماً يبدى غروره
خطف الزاد ، فقلنا : خنت فى الغاب أميره

سب مولاى سباباً أنا منــه مستجيرة

الأسد (غاضباً) : —

وأين مضى ذلك المجرم ؟

الأرنب لدى «البئر» فى أكلها ينعم

الأسد (متوعدا) : —

إلى البئر حتى يرى حتفه ويعـلم إن كان لا يعـلم

(ويسيران حتى يقفا على حافة البئر)

الأرنب (مشيرة إلى خيال الأسد وخيالها فى الماء) : —

هـذا هو « الليث » يبدو وتلك « زاد » الأمير

الأسد (هائجاً) : -

لاعشت إن عاش بعد وليلق شر المصير

(ثم يهجم على الخيال فيغرق)

الأرنب (وقد عادت فرحة إلى جماعة الوحش) : —

غرق الباغى وتم المصرع

جماعة الوحش (تغنى) مسرورة : —

كم نرى « ليثا » ولكن يخدع

عشت للغاب ، وعاش المنبع

أرنب « صغرى » ولكن : تنفع

محمد يوسف المحجوب

المدرس بمدرسة مصر الجديدة للبنين

متفرقات

للأستاذ عبد العزيز محمد خليل

إلى صديق النازح

ذكرتك ياصديقى فاعترتنى   لذكرك هزة الكلف المشوق
فبت ولى إليك هوى مُلحّ   وقلب لم يزل بك فى خفوق
أكفكف من تلهفه فيأبى   ويُذْكرنى بمالك من حقوق
ولم يك قبل يصدف عن ولائى   فآثر أن يلجّ به عقوقى
ألست خلاصة النفر المُرجّى   ولست ذؤابة النفر الصديق ؟
وكنت يدى على نوب الليالى   كريم الغيْب محمود اللصوق
وأنت أخى ورب أخى إخاء   أبر رعاية منَ أخ شقيق
شربت على يديك الصفو مما   تدرّ به خلائق كالرحيق
وشمت بك الزمان بدا بوجه   جميم الخـــير لماح أنيق
وكان بك الشباب شباب هدْيٍ   من الأخلاق والرأى الوثيق
وأمحضنى ولاؤك ماثنانى   إليك بطاعة المولى الرقيق
فليتك لم تكن يوما بناءٍ   إذا ما أبت منك بلا رفيق
«أبو الفاءات» يعرف كيف يصفى   أخاه الود فى البلد السحيق

نشيد مدرسة الحلمية للبنات

مَجِّدى عرشك لماح السّنا   واملئى الوادى بألحان الخلودْ
وأهيبى وتـَغَنّىْ بالمــنى   واهتفى تسمعك آذان الوجودْ
يا ابنة النيل السعيدْ   يا ابنة العصر الجديدْ
عصر رب الشعب فاروقِ الأمين

أنت رمز العلم فى الوادى الخصيبْ ورسول السلم فى تلك الربوعْ
ورجاء الناس فى الآتى القريبْ وثنا يصفو شذاه ويضوع
إنما العــلم حياةٌ يبلغ الشعبُ مناهْ
يوم ترقى البنت فى علم ودين
يا ابنة الحلمية امضى للعلا بسلاح العــلم والدين القويمْ
وانهضى فى عصرك الحر ولا ترهبى فالنصرُ للحر الكريمْ
هذه الدنيا كفاحْ فاز فيها بالفلاحْ
أمة سادت بنات وبنينْ
من لهذا الشعب يُصفيه الحنان ويُرَجّيه لدى العيش النضيرْ؟
من له يُنسيه آلام الزمان ويواسيه إذا عَزَّ النصيرْ؟
فارحمى العانى الغريمْ وامسحى دمع اليتيمْ
يا ابنة النيل ونسل الأكرمين

وصف زورق

وزورق يجرى به فى الماء شراعه كالطير فى الهواء
له يدان شُدّتا من خشبِ مثل ذراعى سابح مُدَرّب
وتدفع الريح له شراعا فيقطع اللجة والبقاعا
وينبرى مُيامِنًا مُياسرًا كما تهز الريحُ غصنا ناضرا
حيزومه يبدو من الأمام محدَّداً كجؤجؤ الحمام
يشق وجه الماء أنىّ سارا ويترك الموج به آثارا
ومن ورائه يُرى سكا ُنهْ يديره بيــده ربا ُنهْ
مفطح كذنب الطيور فى شكله ونفعه الكثير
يهديه فى الذهاب والإياب فلا يضل السير فى العُباب
ورب شيء تافه صغير يكون ذا فضل على الكبير

فى حفلة الألعاب الرياضيه

الطفولة

حيِّ الطفولة فى نضارة عهدها عهد النشاط ومسرح الألعاب
واذكر بها عهد الصبا ومراحه بين الحمى وطوائف الأصحاب
ولّت به الأيام حلما فى الكرى حلوا ، ولكن لات حين مآب
ومضى على عجل فلم ننعم به وقضى لبانته على الأبواب
حتى إذا مادق يؤذن بالنوى خفقت له الآمال فى الألباب
وجرى الشباب إليه يخطب وده فأبى ولم يظفر له بإياب
فإذا حننت فما الحنين براجع ما اشتهيه بعد طول غياب
وإذا صبوت إليه عنفنى على هذا الوفاء له لسان شبابى

الألعاب والطفولة

لله عهـــد بالطفولة باسم زاهٍ كزهر الروض غب سحاب
عهد به الآمال جد فسيحة جم الغرائز مترع الآراب
عهـــد به العفريت رمز خياله يجرى وراء الحادث الخلاب
خصب الخيال مليئه فكأنه لوح الخيالة أو فصول كتاب
الطفل فيه على حداثة سنه قبس من التفكير ليس بخاب
كلف بتقليد البطولة مغرم بالسبق بين لداته الأتراب
فإذا ترعرعت الطفولة واغتذت بمباهج الألعاب والتجواب
فتحت لها سبل الحياة وأخرجت ثمر الفتوة ناضر الجلباب
وأتت به صلب القناة مدربا جلدا ليوم كريهة وضراب
وأفاد من لهو الحياة وجدها مايرتقى بهما ذرا الأسباب

حياة الرياضة

هذا هو اللهو البرىء فرفهوا عنكم عناء العيش بالألعاب
وخذوا بها أجسامكم من قبل أن تتقيدوا بالسن والألقاب
وتمتعوا فيها بما ينسيكم هم الزمان وصرفه المنتاب
العيش ضاق فلن يلين لنا شىء أخنى عليه الدهر بالأوصاب
والعصر عصر مصانع ومطامع لاعصر حانوت ولا كتاب
والعصر عصر رياضة ورياسة وتنافس فى الغنم والأسلاب
سادت به أمم الرياضة غيرها ممن غدت فى عزلة وحجاب
وتمكنت فى الخافقين بفضل من أنمته من أبطالها الأنجاب
من لم يجار الدهر خيفة ناقد فقد استعار طبيعة الكذاب

عبد العزيز محمد خليل

حلمية البنات

فهرست

العدد الاول من السنة السابعة